الإسلام اليوم

مجلة دورية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ
باللغات الثلاث : العربية ـ الإنجليزية ـ الفرنسية

العدد الثامن والعشرون
السنة السابعة والعشرون
1433 هـ / 2012 م

مجلة دورية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ
باللغات الثلاث : العربية ـ الإنجليزية ـ الفرنسية

- العنوان : شارع الجيش الملكي ، حي الرياض ، ص . ب : 2275 ،
  الرمز البريدي : 10104 ، **الرباط ، المملكة المغربية**
- البريد الإلكتروني : **isesco@isesco.org.ma**
- الهاتف : **+ (212) 05 37 56 60 52 / 05 37 56 60 53**
- الفاكس : **+ (212) 05 37 56 60 12 / 05 37 56 60 13**
- فاكس قسم الإعلام : **+ (212) 05 37 71 53 27 / 05 37 71 47 21**
- البريد الإلكتروني لقسم الإعلام : **press@isesco.org.ma**

ثمن العدد في دولة المقر : **60 درهماً** . وفي جميع الأقطار : **10** $

رقم الإيداع القانوني : 28 – 1983
رقم التسلسل الدولي الموحد : ISSN 0851 – 1128

التصفيف والتوضيب في قسم الإعلام ووحدة التصوير الطباعي في الإيسيسكو
والترجمة في قسم الترجمة بالإيسيسكو
السحب : مطبعة الإيسيسكو ـ الرباط ـ المملكة المغربية

المقالات المنشورة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الإيسيسكو

التراث والهُوية

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري (*)

إنَّ أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر كلمة (**التراث**) ، قولُه تعالى في الآية التاسعة عشرة من سورة الفجر ﴿**وتأكلون التراث أكلاً لـمًّا**﴾ .

تقول التفاسير في هذه الآية ، (أي تجمعون الميراث وتستولون عليه دون تفرقة في أنصبتكم وأنصبة شركائكم فيه ، أو دون تفرقة بين ما جمعه الموروث بالطرق المشروعة ، وما جمعه بالغش والخداع وغيرهما من الطرق غير المشروعة) .

وكما هو واضح ، فإن هذا المعنى للتراث الوارد في القرآن الكريم ، يحمل دلالة تختلف عن المفهوم المعاصر للتراث . فقد توسَّع هذا المفهوم ليشمل كل ما خلفه لنا الأجداد من محسوسات ومعنويات .

والإرث في اللغة مصدره : ورث يرث إرثاً وميراثاً ، وهو : ما وُرث وورثه بعضُهم عن بعض ، واصطلاحاً هو : كل ما خلفته الأمة من إرث ديني ، وثقافي ، وأدبي ، وفلكلوري ، وعلمي ، وعمراني ، وحضاري . وأصل الكلمة مأخوذ من فعل (ورِث) بإبدال الواو تاء ، وهي من الكلمات المبنية على ما يعرف في اللغة بالقياس الخاطئ .

فالتراث بالمفهوم الحديث المتداول ، هو كلُّ ما وصل إلينا مكتوباً في علم من العلوم ، أو محسوساً في فن من الفنون ، مما أنتجه الفكر والعمل في التاريخ الإنساني عبر العصور .

فلكل أمة إذن تراثها ، الذي هو : ثمرة فكرها وعقائدها ، وحصيلة جهدها العقلي والروحي والإبداعي .

ولا بد هنا أن أوضح ، ابتداءاً ، أمراً أراه ذا أهمية بالغة ، وهو أن التراث الذي هو نتاج العقل البشري ، لا يشمل الوحي الإلهي . وهذه المسألة الدقيقة نجدها موضع اتفاق بين ثلاث مدارس فكرية في عصرنا هذا ، على تباين في توجّهاتها ، واختلاف في مشاربها ، يمثلها ثلاثة مفكرين :

(*) المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ــ إيسيسكو ــ ، الأمين العام لاتحاد جامعات العالم الإسلامي . والنصُّ محاضرة ألقيت في دمشق في 7 أبريل 2010م .

الأول هو الباحث المفكر المصري أنور الجندي الذي يقول في موسوعته : (**مَعْلَمة الإسلام**) :

«لابد دائماً من أن تكون التفرقة واضحة بين التراث وبين الميراث ، وأن نكون قادرين على الوضوح الكامل إزاء فهم كلمات (**القديم، والماضي، والتراث**) ، وعلاقتها بذلك الموروث الإسلامي الأصيل ، وأن **نكون قادرين دائماً على التفرقة بين الإسلام باعتباره ديناً ومنهج حياة ، له ثباته وربانيتُه وقدسيته الممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية، وبين التراث الذي هو اجتهاد المسلمين في تفصيل هذا الميراث وتعميقه والاستجابة له ، من خلال العصور والظروف والأحداث والبيئات**[1]» .

والثاني هو المفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري ، الذي رحل عن دنيانا أخيراً وخسرته الساحة الفكرية ، الذي يقول في كتابه "**مدخل إلى القرآن الكريم**" ، ما يلي :

«**لقد أكدنا مراراً أننا لا نعتبر القرآن جزءاً من التراث** . وهذا شيء نؤكده هنا من جديد . وفي الوقت نفسه ، نؤكد أيضاً ما سبق أن قلناه في مناسبات سابقة من أننا نعتبر جميع أنواع الفهم التي شيّدها علماء المسلمين لأنفسهم حول القرآن ، سواء كظاهرة قرآنية بالمعنى الذي حددناه هنا ، أو كأخبار وأوامر ونواه ، هي كلها تراث ، لأنها تنتمي إلى ما هو بشري[2]» .

والثالث هو الباحث الأكاديمي الكبير أستاذ الأجيال الدكتور شوقي ضيف الذي يشرح في كتابه القيم (**في التراث والشعر واللغة**) ، نظريته في (وحدة التراث الديني والعلمي) للأمة العربية الإسلامية . **وهي نظرية تؤكد على تكامل التراث في إطار منظومة مترابطة الحلقات** ، ويقول :

«إنَّ أمتنا العربية ذات تراث واحد روحي وعقلي وأدبي ، **ونور تراثها الروحي الباهر هو القرآن الكريم المعجزة التي ليس لها سابقة ولا لاحقة في تاريخ الحياة الروحية الإنسانية** ، نور يهدي الإنسان إلى سواء السبيل ، متنقلاً به من الظلمات الموحشة إلى عالم النور والهداية الربانية ، بما شرع القرآن له من قيم روحية خالصة ، ترسم له أصول عقيدة إلهية رفيعة وعبادات وفضائل تطهر نفسه وتزكي قلبه ، وقيم عقلية تخلصه من السحر والكهانة والخرافة ، وتعدّه للعلم والمعرفة والانتفاع بالحياة ، وقيم اجتماعية تدفعه إلى العدالة والمساواة بينه وبين أفراد الأمة في جميع الحقوق والواجبات[3]» .

هذا الاتفاق على تحديد مفهوم التراث ، بين ثلاث مدارس فكرية ، يجعلنا نقول إنَّ الثقافة العربية المعاصرة ، في مدلولاتها العامة ، لا تتنكر لتراث الأمة ، فحتى الذين كتبوا عن

(1) **معلمة الإسلام** ، المجلد الثاني ، ص : 123 ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1982 .

(2) **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص : 26 ، الجزء الأول ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 2007 .

(3) **سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية** رقم 100 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1987 .

(**من التراث إلى الثورة**) عادوا إلى تبنّي المفهوم الواقعي والمدلول الحقيقي للتراث . بل إن المفكر العربي الدكتور محمد عابد الجابري ، الذي نشر كتابه (**نحن والتراث**) قبل نحو ثلاثين سنة ، عاد في كتابه الموسوعي الذي يقع في أربعة أجزاء : (**المدخل إلى القرآن الكريم**) ، ليعلن عن رجوعه إلى الأصل .

وعلى كلّ حال ، فإن أبرز مقومات التراث العربي الإسلامي ، أنه حيٌّ متصلٌ بالتاريخ المطَّرد ، يتفاعل مع متغيرات الحياة ، أخذاً وعطاءاً ، دون أن يفقد أصالته وتميّزه . وأن جذوره ما تزال عميقة في التربة ، تنبض بالقوة ، في مختلف مجالات : اللغة ، والتاريخ ، والثقافة ، والتشريع ، والأدب ، والعقائد ، والأخلاق ، وإن مثل هذه الجذور الممتدة المطردة الدائبة الحركة ، لا يمكن أن توصف بما يوصف به التراث اليوناني على سبيل المثال .

إنَّ الاعتزاز بالتراث والمحافظة عليه مسؤوليةٌ مقدسة ، فإذا انهدم الماضي ، فإن عودته ضربٌ من المحال . وإن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ما ورثوه عن أسلافهم من تراث . وهذه ليست نزعة عاطفية معناها الرجعية والجمود ، وإنما هي فطرة أصيلة تكمن في نفوسنا جميعاً .

ولا تعارض مطلقاً بين الاتجاه إلى المستقبل والمحافظة على التراث . بل إن التركيز على التراث كقاعدة ، إنما يجعل النظرة إلى المستقبل أكثر قوة ووضوحاً .

ومن الأقوال المنصفة ذات الدلالة العميقة التي أحب أن أوردها في هذا السياق ، قولٌ للمفكر والمستشرق الفرنسي جاك بيرك ـ Jacques Berque ـ :

«إنَّ مستقبل العرب يتمثل في إحياء الماضي ، لأن المستقبل في كثير من الحالات ، هو : الماضي أو الحاضر الذي وقع إحياؤه وعيشه من جديد» .

ويقول نهرو الزعيم الهندي الشهير أيضاً : «إنَّ علينا أن نتطلع إلى المستقبل ، وأن نعمل له جاهدين ، وأن نحتفظ ، في الوقت نفسه ، بتراثنا الماضي ماثلاً أمامنا لكي نستمد منه القوة والعزيمة ، وخير مستقبل لنا ، هو : ما كان قائماً على الحاضر والماضي على السواء ، أما أن نتنكر للماضي أو ننزع أنفسنا منه ، فمعناه اقتلاع أنفسنا من تربتنا فنخرج منها ، وقد يبس عودنا وجفَّ ما فيه من عصارة الحياة الحقة» .

فالتراث إذن ، ليس محدداً بتاريخ معين ، فكل ما خلفه المؤلف بعد حياته من نتاج يعدُّ تراثاً فكرياً . وعلى ذلك ، فإن كل ما كتبه شوقي وحافظ وعمر أبو ريشة وطه حسين والعقاد ومحمد الطاهر بن عاشور ومحمد عبده وعلال الفاسي وأمثالهم ، يعدّ تراثاً لا يقل أهمية عن ما خلفه لنا أبو تمام والمتنبي والطبري وسيبويه والمعري وابن الهيثم وابن النفيس وابن رشد وسائر أعلام الحضارة الإسلامية .

وقد غطى التراث العربي ، وهو النتاجُ الفكريُّ الذي خلفه لنا العلماء العرب والمسلمون ، جميعَ فروع المعرفة . ونستطيع التعرف على هذا التراث من خلال المؤلفات البيبليوغرافية التي جمعت أسماء الكتب العربية ، ومن أقدمها وأشهرها كتاب "**الفهرست**" لمحمد بن إسحاق النديم الورَّاق الذي بدأ في تأليف كتابه في بغداد سنة 377 هـ ، وكتاب "**كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**" للعالم التركي محمد بن عبد اللَّه كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة المتوفى سنة 1067م ، إضافة إلى كتب التراجم والطبقات ، وكتب مشيخات العلوم وبرامج الشيوخ .

وفي عصرنا هذا ، ظهرت ثلاث شخصيات أنجبتهم دمشق ، خدمت التراث العربيَّ الإسلاميَّ خدمات جلى . وهؤلاء الأعلام الدمشقيون هم :

- العلامة محمد كُرد علي ، الرئيس المؤسس للمجمع العلمي بدمشق ، صاحبُ كتاب " **خطط الشام** " ، الذي أصدره في ستة مجلدات ، وظهرت طبعته الأولى في عام 1925م .
- البحاثة عمر رضا كحالة ، صاحب موسوعة "**معجم المؤلفين**" ، وهي تراجم مصنفي الكتب العربية الذي كتب مقدمته سنة 1952م ، وأصدره في خمسة عشر جزءاً ، أضاف إليها الجزء السادس عشر للمستدركات .
- المحقّق صلاح الدين المنجّد ، صاحبُ كتاب "**معجم المخطوطات العربية المطبوعة**" الذي أصدره في بيروت ، في خمسة مجلدات ، خلال الفترة من 1970 إلى 1982م .

وكان الأستاذ صلاح الدين المنجّد ، ابن دمشق ، مديراً لمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، حيث وضع الأسس العلمية لحركة إحياء التراث العربي الإسلامي المخطوط .

يضاف إلى هذه الموسوعات الدمشقية الثلاث ، كتاب " **المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع** " الذي أصدره معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة ، في خمسة مجلدات ، من إعداد الباحث محمد عيسى صالحية ، وصدر خلال الفترة من 1992إلى 1997م .

ومن الأعمال الثقافية التوثيقية التراثية المهمة التي تستحق الإشادة هنا ، ما يقوم به مجمع اللغة العربية بدمشق ، من نشر موسوعة "**تاريخ دمشق**" للعلامة الدمشقي المؤرخ الكبير أبي القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر ، بتحقيق الأستاذة سكينة الشهابي . وهو عمل تراثي ثقافي ضخم عظيم الفائدة ، صدر منه حتى الآن تسعة وستون (69) جزءاً . وهو جهد كبير تستحق عليه السيدة المحقّقة كلّ التقدير .

ولمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي التي يوجد مقرها في لندن ، جهود مشكورة في تصنيف مجموعة من الفهارس الشاملة للمخطوطات العربية في مناطق شتى من العالم ، ونشرها نشراً جميلاً متقناً .

وقد عُني المستشرقون عناية خاصة بالتراث العربي الإسلامي . ونقتصر في هذا المجال على ذكر مثال واحد يعبر بوضوح عن مدى الجهد الخارق الذي قام به المستشرقون في خدمة التراث العربي الإسلامي . ونعني بذلك المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان ـ Carl Brockelmann ـ (توفي عام 1956م) الذي أمضى نصف قرن في إعداد موسوعته الكبيرة "**تاريخ التراث العربي**" ، والتي ترجمت إلى اللغة العربية تحت عنوان : "**تاريخ الأدب العربي**" ، وصدرت في ستة أجزاء .

ولن نغادر ساحة الاستشراق الألماني الذي عني بخدمة التراث العربي الإسلامي ، قبل أن نشير إلى ما قاله المستشرق رايسكه ـ J.J. REISKE ـ منذ أكثر من مائتي عام :

«إنَّ من يقرأ تاريخ الآداب ستعتريه الدهشة عندما يجد أن هناك رجالاً كثيرين جداً في الشرق كانوا متبحرين في كل أنواع الآداب ، في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في ظلام ليل الجهل والهمجية ، وسيعرف بسرور مدى الإسهام الذي قدمه كل منهم في سبيل تنمية الثقافة الإنسانية والتراث الإنساني» .

وهذا المستشرق الألماني جوزيف شاخت ـ Joseph Schacht ـ يقول في تقديمه لكتاب "**تراث الإسلام**" :

«إنَّ كلمة (تراث) في هذا الكتاب تستخدم بمعنيين اثنين : إنها تعني إسهام الإسلام في إنجازات النوع الإنساني بكل مظاهرها . وتعني اتصال الإسلام ولقاءه وتأثيراته في ما يحيط به من العالم غير المسلم . فهذا الكتاب لا يهتم بالتأثيرات التي قد تكون الأديان والحضارات المحيطة بالإسلام قد مارستها عليه ، ولا بالفوارق التي طرأت على الحضارة الإسلامية في مختلف الأقاليم التي دخلت في فلكها ، من المغرب حتى أفغانستان ، ومن تركيا حتى البلاد الهندية الشرقية ، بالرغم من أنه قد تكون مثل هذه الدراسة المقارنة جذابة وشائقة . **إنَّ كتاب "تراث الإسلام" يتناول الإسلام على أنه حضارة ، وليس ديناً فحسب**» .

والحق أن تأثير التراث العربي الإسلامي في أوروبا ، هو تأثيرٌ بالغ النفوذ بعيد الغور . فقد فاق الإعجاب والانبهار في أوروبا بالتراث العربي الإسلامي كلَّ الحدود . ويكفي أن نشير في هذا الصدد ، إلى ما عبر عنه ألفارو ـ ALVARO ـ أسقف قرطبة في ذلك الزمان ، من الشعور بالأسف لاتجاه الكثيرين من الإسبان إلى الإقبال على الأدب العربي على حساب الأدب الأوروبي . وفي ذلك يقول : «إنَّ هناك كثيرين من إخواننا في الدين يقرأون القصائد

والأقاصيص العربية ، ويدرسون مؤلفات علماء الدين الإسلامي ومؤلفات فلاسفة المسلمين ، لا بهدف نقضها والرد عليها ، وإنما ليتعلموا كيف يعبر المرء بالعربية بطريقة دقيقة وأنيقة ، إن كل الشباب ممن لفتوا الأنظار إليهم بعبقريتهم ، لا يعرفون إلا لغة العرب وأدب العرب ، ويقولون في كل مكان بأعلى صوت : إن هذا الأدب جدير بالإعجاب»[4] .

ذلك ، هو جوهر التراث العربي الإسلامي . وذلك هو ميراثنا الثقافيُّ الحضاريُّ الذي نعتز به ، والذي تتشكل منه هويتنا العربية الإسلامية الأصيلة .

إنَّ التراث بهذا المفهوم الواسع الشامل الذي أوضحناه ، ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

- **القسم الأول** : المكتوبات والمقروءات .
- **القسم الثاني** : البنايات والمنحوتات والتصاوير والزخارف .
- **القسم الثالث** : التقاليد والعوائد والسلوكات .

وعلى أساس هذا المفهوم العلمي ، فإن تراث الأمة العربية الإسلامية ، هو هويتها بالمدلول العميق للهوية .

* * *

مفهوم الهوية ودلالاتها ومعانيها وامتداداتها :

إنَّ أول ما ينبغي أن نبدأ به ، هو الإشارة إلى أن ثمة ترابطاً وثيقاً بين التراث والهوية . فلا هوية بدون تراث تستند إليه ، ولا تراث لا يؤسّس للهوية . فالتراث والهوية عنصران متلازمان من عناصر الذات ، ومكونان متكاملان من مكونات الشخصية الفردية والجماعية .

إنَّ كلّ أمة من الأمم لها تراث معلومٌ تُعرف به ، أو مجهول في حاجة إلى الكشف عنه ، ولها هوية تتميَّز بها بين الأمم الأخرى ، سواء أكانت عارفة بهويتها هذه ، أم كانت جاهلة بها أم غافلة عنها .

وجاء في كتاب "**الكليات**" لأبي البقاء الكَفوي : «أن ما به الشيءُ هو باعتبار تَحَقُّقه يسمى حقيقةً وذاتاً ، وباعتبار تشخصه يسمى هوية ، وإذا أَخَذَ أعمَّ من هذا الاعتبار يسمى ماهية» . وجاء في هذا الكتاب أيضاً ، «أن الأمر المتعقل من حيث إنه مقول في جواب (ما هو) يسمى ماهية ، ومن حيث ثبوتُه في الخارج يسمى حقيقة ، ومن حيث امتيازه عن الأغيار يسمى هوية»[5] .

---

(4) د . محمد عمارة ، **الإسلام في مرآة الفكر الغربي** ، ص : 108 ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

(5) أبو البقاء الكفوي ، **الكليات** ، ص : 961 ، تحقيق د . عدنان درويش ، ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1995 .

والهُوية عند الجرجاني في كتابه "**التعريفات**" هي : الحقيقة المطلقة ، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق[6] .

وتستعمل كلمة (**هوية**) في الأدبيات المعاصرة لأداء معنَى كلمة (Identité, Identi-ty) التي تعبر عن خاصية المطابقة : مطابقة الشيء لنفسه ، أو مطابقته لمثيله . وفي المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون ، فالهوية هي : (حقيقة الشيء ، أو الشخص ، المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية ، والتي تميّزه عن غيره ، وتسمى أيضاً وحدة الذات) .

ومن هذا المنطلق ، فإن فهمنا للهُوية ينبني على تراثنا الحضاري ، فالهوية في ثقافتنا العربية الإسلامية ، هي الامتياز عن الأغيار من النواحي كافة . ولفظ الهوية يطلق على معانٍ ثلاثة : **التشخص** ، و**الشخص نفسه** ، و**الوجود الخارجي** .

ولذلك ، فنحن إذا ما اعتمدنا المفهوم اللغويَّ لكلمة (**هوية**) ، أو استندنا إلى المفهوم الفلسفي الحديث ، فإن المعنَى العام للكلمة لا يتغيّر ، وهو يشمل الامتياز عن الغير ، والمطابقة للنفس ، أي خصوصية الذات ، وما يتميّز به الفرد أو المجتمع عن الأغيار من خصائصَ ومميزات ، ومن قيّمٍ ومقوّمات .

وخلاصة القول إن الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم ، هي القدر الثابت ، والجوهري ، والمشترك من السمات والقسمات العامة ، التي تميّز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات ، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية ، طابعاً تتميّز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى[7] .

* * *

بعد أن أوضحنا المفاهيم العامة للتراث وللهوية ، يحق لنا أن نطرح على أنفسنا هذين السؤالين :

- كيف تتم المحافظة على التراث العربي الإسلامي ، وعلى الهوية الثقافية والحضارية العربية الإسلامية ، في ظلّ العَوْلَمَة الكاسحة الباسطة نفوذَها اليومَ على المجتمع الدولي ؟ .
- كيف يمكن التوفيقُ بين مقتضيات السيادة الوطنية ، والسيادة القومية ، والخصوصيات الروحية والثقافية والحضارية ، وبين متطلبات العَوْلَمَة ؟ .

(6)الشريف عليّ بن محمد الجرجاني ، **التعريفات** ، ص : 257 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1995 .

(7) د . عبد العزيز بن عثمان التويجري ، **العالم الإسلامي في عصر العولمة** ، ص : 46 - 47 ، دار الشروق ، القاهرة ، 2004 .

إنَّ اتجاهات العَوْلَمَة تسير نحو التأثير السلبي على الهوية والسيادة معاً . وأول ما يثير الانتباه عند التأمّل في موقف الغرب من هويات الشعوب ، هو جمعُه بين موقفين متناقضين ؛ فهو من جهة ، شديد الاعتزاز بهويته حريصٌ عليها ، وهو من جهة ثانية رافضٌ للاعتراف بالهويات الوطنية لشعوب العالم ، لإحساسه بأن العَوْلَمَة من شأنها أن تؤدي إلى مزيدٍ من الوعي بالخصوصية الثقافية والحضارية .

وتلك في نظر الغرب عموماً ، هي المعضلة الكبرى التي يصطدم بها . ويعبّر مفكروه عن هذه الحيرة الفكرية ، بوضوحٍ وصراحةٍ لا مزيد عليهما .

في دراسة للمفكر الأمريكي صمويل هنتنجتون ـ SAMUEL HUNTINGTON ـ نشرت في عدد شهرَيْ (نوفمبر ـ ديسمبر 1996م) من مجلة "**شؤون خارجية**" ، تحت عنوان مثير للغرابة فعلاً هو : "**الغرب : متفرد وليس عالمياً**" ـ **The West : Unique, Not Universal** ـ يفرّق فيها بين (التحديث) ـ Modernization ـ وبين (التغريب) ـ Westernization ـ يقول :

«إنَّ شعوب العالم غير الغربية لا يمكن لها أن تدخل في النسيج الحضاري للغرب ، حتى وإن استهلكت البضائع الغربية ، وشاهدت الأفلام الأمريكية ، واستمعت إلى الموسيقى الغربية ، **فروح أي حضارةٍ هي اللغةُ والدين والقيم والعادات والتقاليد** ، وحضارة الغرب تتميّز بكونها وريثَة الحضارات اليونانية والرومانية والمسيحية الغربية ، والأصول اللاتينية للغات شعوبها ، والفصل بين الدين والدولة ، وسيادة القانون ، والتعدّدية في ظَل المجتمع المدني ، والهياكلِ النيابية ، والحرية الفردية» .

ويضيف هذا المفكر الأمريكي الذي شغل الناس بنظريته :

«إنَّ التحديث والنمو الاقتصادي لا يمكن أن يحققا التغريبَ الثقافيَّ في المجتمعات غير الغربية ، بل على العكس ، يؤدّيان إلى مزيدٍ من التمسك بالثقافات الأصلية لتلك الشعوب . ولذلك ، **فإن الوقت قد حان لكي يتخلى الغربُ عن وهم العَوْلَمَة، وأن ينمّي قوةَ حضارته وانسجامها وحيويتها في مواجهة حضارات العالم. وهذا الأمرُ يتطلب وحدةَ الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ورسمَ حدودِ العالم الغربي في إطار التجانس الثقافي**» .

وتلك شجاعة فكرية من هذا المفكر المثير للاهتمام ، تحمد له على كلّ حال .

* * *

في ظلّ هذه المعطيات الفكرية التي تشكل معضلة تتطلب المعالجة ، يطرح هذا السؤال الذي نراه وجيهاً :

ــ هل هذه العَوْلَمَةُ التي تسعى إلى تذويب الهويات وطمس معالمها وتهجينها ، هي صيغةٌ جديدةٌ من صيَغِ المواجهة الحضارية التي يخوضها الغربُ ، بالمفهوم العام للغرب ، ضد هويات الشعوب وثقافات الأمم ، ومن أجل فرض هيمنةِ ثقافةٍ واحدة ، وإخضاع العالم لسيطرةِ حضارةٍ واحدة ؟ .

إنَّ الهوية المفروضة على المجتمع الدولي بهذا المفهوم ، تَتَعَارضُ ــ تعارضاً تاماً ــ مع قواعد القانون الدولي ، ومع طبيعة العلاقات الدولية ، بل إنها تتعارض كليةً ، مع سنة التعدّد التي هي من السنن الإلهية ، ومع قانون التنوّع الثقافي . والعَوْلَمَةُ إذا سارت في الاتجاه المرسوم لها ، ستكون إنذاراً بانهيار وشيك للاستقرار العالمي ، لأن هذه الهوية المفروضة على المجتمعات الإنسانية بالإكراه ، والتي تسيِّر في ركب العولمة بهذا المضمون ، تضرب الهويةَ الثقافية والحضارية للشعوب في الصميم ، وتنسف أساس التعايش الثقافي بينها . كما أن العَوْلَمَة بهذا المفهوم الشمولي ذي الطابع القسري ، ستؤدي إلى فوضى على مستوى العالم ، في الفكر والسلوك ، وفي الاقتصاد والتجارة ، وفي الفنون والآداب ، وفي العلوم والتكنولوجيا أيضاً[8] .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن الإنسانية لا تملك أن تتحرّر في الوقت الراهن ، من ضغوط العَوْلَمَة الكاسحة للهويات والطامسة للخصوصيات والجارفة للتراث ، بل الساعية إلى محوه ، نظراً إلى حاجتها الشديدة لمسايرة النظام العالمي الجديد في اتجاهاته الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية ، ومواكبة المتغيّرات الدولية في هذه المجالات جميعاً . ولكنها تستطيع إيجاد تيار ثقافي إنساني مضاد يقف في مواجهة روح الهيمنة التي تنطوي عليها هذه العَوْلَمَةُ فكرةً ونظاماً ، وتطبيقاً وممارسةً ، وفي التعامل مع الآثار المترتبة عليها ، في انتظار **بروز قوى عالمية جديدة ستكون مناوئة للقوة المتحكمة حالياً في مقاليد النظام العالمي، أو على الأقل منافسة لها منافسة النِّد للند** .

قبل ست سنوات ، نشرت في القاهرة كتابي "**العالم الإسلامي في عصر العولمة**" ، الذي قلت فيه :

«إنَّ طائفة من علماء المستقبليات ومن الدارسين الاستراتيجيين ، وجلُّهم من الغرب نفسه ، يذهبون إلى القول بأن تطوراً حاسماً سيقع في ميزان القوى العالمية على المستويين السياسي والاقتصادي ، في العقد الأول من القرن الجديد ، وسيترتَّبُ على ذلك ، انقلابٌ جذريٌّ في توجّهات العَوْلَمَة ، وهو الأمر الذي سيكون تعزيزاً وترسيخاً وإعلاءً للشرعية الدولية

(8) د . عبد العزيز بن عثمان التويجري ، المصدر السابق .

القائمة على قواعد القانون الدولي ، لا على منطق القوة والغلبة والظفر في معارك الحرب الباردة»[9] .

وها هو العقد الأول يكاد ينتهي ، وقد حدثت فعلاً تحولات سريعة في الساحة الدولية ، بل وقعت هزات عنيفة زعزعت الأرض تحت الاقتصاد العالمي . ولا تزال تداعيات هذه الهزات تتفاقم . وما يهمنا في هذا المقام ، هو تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية في الهوية الثقافية والحضارية للأمم والشعوب ، وفيما سيترتب عليها من تحولات نتوقع أنها ستكون شديدة الوطأة على المجتمعات التي تفرّط في تراثها وتتخلى عن هويتها .

إننا نستطيع أن نقول اليوم ، بثقة ، ومن خلال معايشتنا للواقع ومراقبتنا للأوضاع في العالم ، وتعمقنا في فهم المتغيّرات التي تجري من حولنا، **إنَّ الهوية الوطنية تتعرض لمخاطر جمة** .

* * *

بالرجوع إلى (**الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي**) التي وضعتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ــ إيسيسكو ــ ، والتي اعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي السادس المنعقد في داكار سنة 1991م ، والتي تم اعتماد صيغتها المعدلة في المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة المنعقد في الجزائر سنة 2004م ، نجدها تضع تحديداً منهجياً موضوعياً ومدلولاً دقيقاً لمفهوم التراث . فالتراث ــ حسب هذا المفهوم الذي اعتمدته الاستراتيجية ــ يُعدّ مظهراً من مظاهر الإبداع الجماعي للأمة خلال تاريخها الطويل ، كما يعدُّ التراث أفضل تعبير عن الهوية الثقافية للأمة وذاتيتها الثقافية . ويشمل التراث أشكالاً متعددة ثقافية وفنية وفكرية متوارثة من ماضي الأمة القريب والبعيد . وهو عطاء من صنع الإنسان ، يختلف باختلاف الأزمنة والأماكن ، وهو في مفهومه العام يخصُّ التراثَ الماديَّ وما يشمله من مبانٍ أثرية ، أو ما تكشفه الحفريات ، وما تضمه المتاحف من آثار ممثلة لعصور مختلفة ، ويضم أيضاً التراث الفكري النابع من نتاج العلماء والكتاب والمفكرين والمبدعين ، كلّ في عصره .

كما أن هناك تراثاً اجتماعياً يتمثل في العادات والأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع ومدى تأثيرها في أفراده . ولذلك كانت له علاقة وطيدة بالممارسات الثقافية ونظرتها إلى المستقبل ، والربط بين حاضر الأمة وبين ماضيها .

وجاء في هذه الاستراتيجية أيضاً : «إذا كنا نؤمن بأن المصدر الأساس للتراث الإسلامي هو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، اللذان فجرا عطاءات علمية وفكرية وثقافية ، فإننا

(9) المصدر السابق .

ننزّه تراثنا عن حصر مدلوله في مجرد الصيانة المنظمة للآثار ، وتبويبها في قوائم ، وعرضها ، أو في مجرد مواصلة الاحتفالات التقليدية ، أو في الارتباط العاطفي بآثار الماضي . ذلك أن التراث يُعدُّ من أهم الوسائل الفعالة في ترسيخ الهوية الثقافية» .

وجاء في (**الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي**) أيضاً ، التي هي بمثابة خريطة طريق أمام الأمة العربية الإسلامية لحماية تراثها والحفاظ على هويتها : «إننا نرفض إضفاء هالة التقديس على التراث الإسلامي بحجة أن الوحي هو الذي فجّره ، ذلك لأن هذا التراث ليس بوحي ، بل هو عمل إنساني وإن ارتبط بالوحي . ولهذا نرى أن دراسته دراسة نقدية هادفة هي أمر مفيد يندرج ضمن سبل العناية به . فالثقافات التي لديها الجرأة على القيام بنقد ذاتي لتاريخها والاستفادة من الدروس المستخلصة من تراثها ، يمكنها أن تصوغ تراثها المستقبلي بروح خلاقة لمواكبة المستجدات دون التخلي عن أصالتها ، وإن الذين يستوعبون تراثهم اكتشافاً ودرايةً ونقداً ، يكونون أكثر استعداداً للحفاظ على التواصل من خلال التغيير» .

وجاء في هذه الاستراتيجية أيضاً : «اللغة العربية عنصرٌ رئيسٌ من عناصر التراث ، ومقوّم قويٌّ من مقومات الهوية . ولقد تأكد بصورة واضحة ، وبما أنتجه المسلمون في مختلف مجالات العلوم الدينية والدنيوية ، أن اللغة العربية لغة مرنة ، قابلة للتطور والتوسّع واستيعاب مختلف العلوم والفنون . تكسب قدرة على التكيف مع الحاجة العلمية والفكرية والنفسية . وقد استطاع القرآن الكريم ، بإعجازه البياني ، أن ينفذ إلى نفوس الملايين من البشر ، وبنى المسلمون على هذا البيان فكرهم وحضارتهم . وهكذا أصبحت اللغة العربية الوعاء المرجعي الدائم لدى المسلمين لفهم القرآن ومعرفة التراث الإسلامي الضخم[10]» .

وحيث إن كثيراً من الإنتاج الفكري الإسلامي ظهر بلغات أخرى في المجتمعات الإسلامية ، غير العربية ، خاصة وأن أغلبه دُوّنَ بالحرف العربي ، فإنه من الضروري الاهتمام بهذه اللغات والعمل على التعريف بما نشر بها عن الثقافة الإسلامية . وللمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافة في هذا المجال نشاط متواصل .

إنَّ التراث الإسلامي الذي هو ما أبدعه العرب المسلمون من علوم وفنون ، وما خلفوه من مآثر تاريخية وعمرانية ، وما لا يزالون يمارسونه من فنون وصناعات ، يشكل بدوره مصدراً للثقافة الإسلامية وللهوية العربية الإسلامية ، بل إن معظمه يعدُّ جزءاً مهماً من التراث البشري الذي لا يمكن إغفاله أو التنكر له .

(10) **الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي** ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الرباط ، 2001 .

ومن المظاهر الحيّة القائمة في التراث العربي الإسلامي ، فضلاً عن الصناعات الفنية والمآثر التاريخية المشار إليها آنفاً ، مجموعة من المؤسسات الاجتماعية كالأوقاف التي تخصص للإنفاق على بيوت الله ، وعلى خزانات الكتب ودور العلم والكتاتيب القرآنية ، والإحسان بكل أنواعه ، بل وحتى على الحيوان . إلى غير ذلك من المظاهر الدينية والتقاليد الاجتماعية المختلفة .

* * *

في مدلولات الحفاظ على التراث :

إنَّ تراثنا أمانة في أعناقنا ، والحفاظ عليه مسؤولية مشتركة بين جميع فئات الأمة ، وهويتنا هي مصدر تميزنا عن الأمم والشعوب ، ومبعث فخر واعتزاز لنا . بل هويتنا **هي الحصانة الواقية لنا من المؤثرات الخارجية** .

وفي ظلّ هذا المناخ الدوليّ غير المستقر ، يتعاظم الخطر الذي يهدّد المجتمعات الإنسانية في خصوصياتها الثقافية والحضارية ، وفي أمنها الفكري والعقائدي ، وفي هويتها الوطنية وثقافتها القومية ، وفي تراثها الحضاري . وهو خطرٌ يتضاعف بقدر ما تتضاءل حظوظ النجاح في كسر سورة الاندفاع لقهر إرادة الشعوب ، وكبح جماح جنون التطرّف في فرض النظام الأوحد على البشرية قاطبة .

ومن هنا يكون الحفاظ على الهوية الحضارية العربية الإسلامية ، وعلى الثقافة العربية الإسلامية ، وعلى التراث العربي الإسلامي ، ضرورةَ حياة ، وواجباً إسلامياً وقومياً في المقام الأول .

وإذا كان الحفاظ على الشيء ، له معنىً رئيسٌ ينصرف إلى خمسة معان فرعية ، هي : **المواظبة** ، و**الصيانة**، و**الوقاية** ، و**المراقبة** ، و**المراعاة** ، ولا يكون لهذه المعاني جميعاً مدلول واقعي ، إلاَّ إذا اجتمعت ، وتداخلت ، وتكاملت ، فإنه لا معنى للحفاظ على الشيء ، إذا لم يواظب عليه ، ويُصان ، ويوقَّى ، ويراقب ، ويراعى . ويبطل هذا المعنى الجامع الشامل ، إذا انتفى عنصر واحد من هذه العناصر الخمسة التي تدخل في الحفاظ على شيء من الأشياء[11] .

ثم إنَّ للحفاظ على الشيء وجوهاً عدة ، وهو يتمّ على مستويين :

المستوى الداخلي، والمستوى الخارجي . والحفاظ يكون غالباً على ما يُستحق الحفاظ عليه ، والمرء عادة يكون شديد الحرص على أغلى ما يملك وعلى أثمن ما يحوز ، ويبذل

(11) الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري ، **في البناء الحضاري للعالم الإسلامي** ، الجزء 7 ، ص : 148 ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الرباط ، 2004 .

جهداً في استمرار امتلاكه لما يحرص عليه ، ولا يدخر وسعاً في الإبقاء على حيازته له ، ويسعى دائماً إلى الحيلولة دون ضياعه منه ، أو تفريطه فيه ، ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وتراثنا وهويتنا أغلى ما نملك من مقومات الوجود .

وهذه الحالة الشعورية تنبثق عن الاقتناع بالقيمة التي هي للشيء المحافظ عليه ، والتسليم بأهميته وجدواه ، وتنبع من الإيمان بقداسة ما يحافظ عليه ، إذا كان عقيدة أو مبدأ ، أو قيمة جوهرية نابعة من الدين ، وبنفاسة ما يحرص عليه ، إذا كان من المنقولات والمحفوظات المادية ، أو التي هي ذات الأصالة والعراقة . وهذا هو المستوى الداخلي للحفاظ على الشيء[12] .

أما على المستوى الخارجي ، فإن الحفاظ على الشيء يتمّ بإرادة ذاتية يعبّر عنها عملٌ يسير في الاتجاه المؤدي إلى تحقيق المراد ، وتتوافر له شروط الجدية والفعالية والتأثير ، مع مراعاة مقتضيات الأحوال ، والتوفر على الإمكانات الذاتية والموضوعية التي تسمح بالتغلّب على ما قد يعترض السبيل لتأمين الحفاظ على المبتغى ، من صعوبات ومعوّقات .

فالعمل من أجل الحفاظ على الشيء ، شرطٌ لازمٌ ، وكلما ارتفعت قيمة الشيء المحافَظ عليه ، وغلا ثمنه المعنوي والمادي ، اشتدت الحاجة إلى العمل القائم على الإرادة القوية ، والتدبير الحكيم ، والدقة في تحديد الهدف . ولا أهمية لعمل يسعى إلى الحفاظ على شيء ، إذا لم يلتزم هذه الشروط ، ويسير في هذا الاتجاه الصحيح .

وبقدر ما يكون العمل للحفاظ على الشيء ، جدّياً ، ومتقناً ، وفاعلاً ، ومؤثراً ، تكون فرص الوصول إلى الهدف أكثر سنوحاً . وبذلك يتم الحفاظ على المرغوب فيه على نحو يُوصل إلى القصد .

ويقتضي العمل على هذا الصعيد ، الوقوف على الظروف المحيطة ، والمناخ السائد ، ومعرفة العوامل المؤثرة سلباً وإيجاباً في السعي نحو الغاية المبتغاة ؛ لأنَّ عدم الإحاطة الكاملة بالمتغيّرات والمستجدات وطبيعة الأحوال السائدة ، ينعكس سلباً على الجهد المبذول في هذه السبيل .

ولا يتم الحفاظ على الشيء على الوجه المرغوب فيه ، إلاَّ بمعرفة كنهه ، وقيمته ، وجدواه ، وتأثيره في الوجود المادي والمعنوي ، معرفة شاملة ؛ لأنَّ الارتباط بالشيء ، أيّاً كانت طبيعته ، عن معرفة عميقة ، أدعى إلى التشبث به ، والحفاظ عليه . كما يُشترط في هذا المجال ، القيام بالواجبات التي يقتضيها الحفاظ على ما يرغب فيه ، ويحرص عليه ، سواء عن إيمان واعتقاد ، أو عن حاجة ومصلحة ، أو استجابة لضرورة من ضرورات الحياة .

---

(12) الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري ، المصدر السابق ، ص : 147 .

وهذان المستويان ، الداخلي الذاتي والخارجي الموضوعي ، يتكاملان ولا ينفصلان ، ويتداخلان ولا يتقاطعان ، وهما أقوى ما يكونان تكاملاً وارتباطاً عندما يكون المحافَظ عليه ، أو المرغوب في الحفاظ عليه ، من المبادئ والمقدسات ، ومن القيم والمقوّمات ، ففي هذه الحالة يكون الأمر يتعلق بأحد الواجبات الشرعية التي تعلو فوق كلّ الواجبات[13] .

نقول هذا ونؤكد عليه ، لأن الأمر فيما يبدو لنا ، في حاجة إلى تكرار القول وتأكيده ، لأن الخطر المحدق بتراثنا وبهويتنا حقيقة نعيشها .

* * *

الهوية هي الحصانة الواقية ضدّ التلاشي والذوبان :

إنَّ الأمة العربية الإسلامية تواجه اليوم تحديات شديدة الوطأة على العقل العربي ، وعلى الذاتية العربية ، تحمل معها مخاطر تهدد كيانها وهويتها ومقوماتها وخصوصياتها ، بل هي تهدد (**الأمن الروحي**) ، و(**الأمن الثقافي**) لهذه الأمة المجيدة ذات الرسالة الحضارية العربية الإسلامية الخالدة .

إنها حرب ضارية شرسة حقاً ، هذه التي نواجهها ، محورها تاريخُنا ، وتراثنا ، وهويتنا ولغة كتابنا الكريم . ومن ثم هي شأننا ، ويتعين التصدي لكلّ المتربصين بنا الذين يسعون إلى تشويه تاريخنا ؛ لكي نخطو في أمان إلى المستقبل خطوات كلها ثقة ، وعلى أساس من تفكير علمي ورؤية موضوعية . إذ هل يمكن أن نستخدم التراث الثقافي لمصلحة البعث الحضاري والتقدم الاجتماعي ، دون وعي صادق بالتراث الثقافي في تاريخه وأحواله . . ودون صورة تصحيحية لإطارنا الفكري ، من خلال حركة عقلانية نقدية رصينة ورشيدة ، وما أفضت إليه بعض من سلبيات الماضي من تراكمات لقيم فكرية ثقافية ومادية غير أصيلة وسلبية تراكمت عبر القرون ، تفرض نفسها وتدمر وجداننا ومقومات كياننا ؟[14] .

إنَّ التراث مكونٌ أساسٌ للهوية ، والهوية معبرة عن التراث وناقلة عنه ، وإنَّ الأمم تعرف بهوياتها التراثية التي تجسدها **الثقافة** و**الحضارة** . والمحافظة على التراث بأشكاله وأنماطه وتجلياته المتعددة ، واجب ومسؤولية ورسالة ، باعتبار أن التراث رصيدٌ إنسانيٌّ متراكم يعدُّ ثروة الأمة ورصيدها الذي لا ينضب ، وجذور وجودها . والتراث مصدرٌ معرفيٌّ وحضاريٌّ ينهل منه ويبنى عليه . ولذلك كان التفريط في التراث انسلاخاً من الهوية وتنكراً للأصول ، وكان تواصل الأجيال من خلال التراث بجميع أشكاله ، ضرورة من ضرورات المحافظة على التراث وحماية

(13) الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري ، **العالم الإسلامي في عصر العولمة** ، ص : 45 .

(14) بتصرف عن شوقي جلال ، **العولمة : الهُوية والمسار : رؤية عربية** ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 2007 .

الخصوصيات الثقافية والحضارية . فتراثنا ثروة إنسانية حضارية أغنت المعرفة الإنسانية عبر العصور ، والتاريخ الفكري والثقافي والأدبي والعلمي للأمة ، هو مصدر اعتزازها ومنهل ديمومة تميزها وفرادتها وأصل هويتها . والتراث العربي الإسلامي زاخر بالعلوم والمعارف والآداب والفنون ، وهو مظهرٌ من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التي تلاقحت فيها عطاءات العرب والفرس والروم والهنود والترك والزنوج ، وغيرهم من الأعراق والأجناس وأهل الأديان والمذاهب والملل والنحل ، لتتشكل منها منظومة متكاملة من القيم والمثل والمبادئ وأنواع الإبداع الإنساني في شتى حقول المعرفة . والتراث لا يتعارض مع التحديث والتطوير والتجديد في الأفكار والتصورات وفي الأساليب والنظم ، كما أنه يشكل في مجموعه ، قاعدة راسخة للتغيير في الحياة نحو الأفضل والأجمل ، و **أن الهوية هي الحصانة الواقية ضد التلاشي والذوبان** .

وتأسيساً على ذلك ، فإن الحفاظ على التراث هو في الوقت ذاته ، حفاظ على الهوية .

يقول الكاتب العربي شوقي جلال في كتابه "**العولمة : الهوية والمسار : رؤية عربية**" :

«إنَّ المعركة القادمة ـ كما يقول شيمون بيريز رئيس الكيان الصهيوني ـ **لن تكون على الحدود أو الأرض، بل ستكون معركة الهوية اليهودية والانتماء الثقافي. وهو موقف أيديولوجي منذ التوراة، يتعارض جوهرياً تعارضاً تاماً مع منطق التاريخ والنهج العلمي لأحداثه؛ مما يوجب الحذر وتأكيد الإطار المعرفي القيمي والتاريخي بمحتواه الصحيح، وتعزيزاً لروح الانتماء والمواجهة**»[15] .

هكذا ينظر عدونا المغتصب لأرضنا ، المدنّس لمقدساتنا ، الظالم لأهلنا في فلسطين ، إلى طبيعة المعركة الحضارية مع وجوده المصطنع على أرض مسلوبة وبقرارات باطلة ، وبدعم ظالم من قوى استعمارية مستبدة .

أردت أن أختم بهذا حديثي لأنبِّه الأذهان إلى حقيقة التحدّيات التي نواجهها ، وإلى خطورة المرحلة التي نعيشها ، وما تستدعيه من تحرك جماعي قويّ وتضامن في جميع المجالات وصمود في ميدان المقاومة بكل أنواعها ، للحفاظ على تراثنا وهويتنا ووجودنا .

(15) شوقي جلال ، المصدر السابق .

ISLAM TODAY

Journal of the Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization -ISESCO-

Edited in the three languages: Arabic, English and French

Issue 28 - 27th year
1433H / 2012

HERITAGE AND IDENTITY

Dr Abdulaziz Othman Altwaijri(*)

The first thing that comes to mind, when considering the meaning of the word (*turath*), is what Allah says in verse 19 of *Surat al-Fajr*: "***And you devour inheritance accumulating indiscriminately (between what is lawful and unlawful).***"

Allah is addressing those people who accumulate inheritance indiscriminately, either legitimately or illegitimately, all with greed.

The word (*turath*), as mentioned in the Quran, is totally different in meaning from that of the modern usage. It has expanded to include all the legacy, tangible and intangible, of our ancestors.

The word (*irth)*, meaning inheritance, etymologically comes from the verb (*waritha*), meaning inherit. The words (*irth*/*mirath*), both meaning inheritance, refer to all that which people inherit from one another. Terminologically, the word (*irth*) means the legacy - religious, cultural, literary, folkloric, scientific, cultural and urban - a nation has left over generations.

Turath (heritage), in its modern usage, is all that we get from the accumulated wisdom, both tangible and intangible, of human history.

Nations possess each their own heritage - i.e., the fruit of their collective mind, and the outcome of their mental, spiritual and creative effort.

There is one important point I should like to first make in this context. It is that heritage, the product of the human mind, does not include the divine revelation. This is a very critical matter on which three schools of thought in today's Muslim world form a common judgment. These, though different in orientation and background, are represented by three distinct thinkers:

There is the Egyptian thinker and researcher Anouar al-Joundi who in his ***Maalamat Al-Islam*** (Edifice of Islam) says: "*The distinction should always be*

(*) Director General of the Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization (ISESCO). The text is a lecture by Dr. Altwaijri, delivered in Damascus (7 April 2010).

*clear between (turath) heritage and (mirath) inheritance. And we equally must be able to completely differentiate between the terms (**old, past and heritage**), and their relationship with Islamic tradition. We also **need to always be able to distinguish between Islam as a religion and a way of life, with the Holy Quran and Sunnah as its sacred sources, and the legacy of independent opinions by Muslim scholars (Ijtihad) consisting in the analysis of problems not covered precisely in the Quran and Sunnah, in order to best adapt to the needs that vary according to ages, circumstances, events and environments***."[1]

There is also the Moroccan thinker Dr Mohammed Abed al-Jabri, May Allah have mercy on his soul, who in his book ***Madkhal ila al-Qur'an al-Karim*** (Introduction to the Qur'an) says:

> "***We often have stressed that we do not consider the Qur'an part of heritage***. *This is something that we emphasize here again. At the same time we also stress what we have said on previous occasions: we consider as heritage, because part of human wisdom, all levels of understanding by Muslim scholars of the Quran, both as a phenomenon in the sense we have set here and as a set of divine commands and interdictions.*"[2]

The third is the great academic and intellectual Professor Dr Shawqi Daif, who in his invaluable book (***On Heritage, Poetry and Language***) expounded his theory of the (unity of religious and scientific heritage) of the Arab Islamic Ummah. Shawqi's is **a theory which emphasizes the integration of heritage in the context of a closely knit system**.

Shawqi says: "*Our Arab nation has one spiritual, mental and literary heritage. **The Quran, the miracle of miracles, is the beacon of light which illuminates all spiritual matters in our life**. It is the light which guides man to the straight path, taking them from the shrouds of darkness to the realm of light and divine guidance. There in the Quran are pure spiritual values which form the essence of the final, exalted divine creed, and acts of worship and virtues for man to purify their souls and hearts. The Quran also appeals to the mind seeking to help man deliver themselves from sorcery, soothsaying and superstition, thus allowing them to relish the enjoyments of knowledge and life. Through the Quran*

---

(1) ***Maalamat Al-Islam*** (Edifice of Islam), 2nd ed., Volume II, (Beirut: Al-Maktab Al-Islami, 1982) 123.

(2) ***Madkhal ila al-Qur'an al-Karim*** (Introduction to the Qur'an), 2nd ed., Volume I (Beirut: Arab Unity Studies Centre, 2007).

Allah teaches us observing the values of social justice and equity in rights and obligations for all Muslims."[3]

The fact that this definition of heritage is in accord with the tradition of the said three schools gives us room to say that the contemporary Arab culture, in its general acceptance, does not adopt a rejection of the heritage of the Ummah. Even those who once represented the (***Min al-Turath ila al-Thawrah***) (From Heritage to Revolution) trend have come to approve heritage in its realistic concept and true significance. Even the Arab thinker Dr Mohammed Abed al-Jabri went back in his five-volume encyclopedic work (***Introduction to the Holy Quran***) on the ideas and opinions he advanced three decades before in his (***We and Heritage***).

In any case, the most distinguishing feature of the Arab Islamic heritage is that it has forever been vibrant and dynamic, closely interacting with the manifold aspects of life, in both directions, without losing its originality and distinctive features. One other outstanding trait about the Arab Islamic heritage is that it has existed since time immemorial, greatly influencing all spheres of human life: language, history, culture, legislation, literature, religion, manners. These roots, deeply anchored in the past, cannot, for instance, be described in the manner of the Greek heritage.

This means that great care must be taken to preserve heritage, as it cannot regenerate or be restored if destroyed. The most horrid of all crimes that Man can commit is to ruin what they inherited from their ancestors. Heritage preservation is not to be taken as an emotive, reactionary attitude, but rather as a natural human disposition.

There is no conflict at all between looking forward to the future and conserving past heritage. Rather, the focus on heritage should be seen as the basis on which to clearly and vigorously shape the future.

There is a famous saying by renowned French scholar and orientalist Jacques Berque which I always love to quote in this connection: "*The future of the Arabs lays with their revival of the past, for the future, in many cases, is the past or present brought to life.*"

As famous Indian leader Jawaharlal Nehru once said, "*We have to earnestly look ahead to the future, and strive to preserve our heritage. In both the past and*

(3) ***Heritage, Poetry and Culture***, published in the series 100 of the Literary Studies Library (Cairo: Dar Al Ma'arif, 1987).

the present we should find inspiration to draw a better future for all. For ignoring one's past is ignoring one's roots."

Heritage is bound by no timeframe. For all that a writer leaves after their death is the product of their intellectual labour. Therefore, works by Shawqi, Hafez, Omar Abu Risha, Taha Hussein, al-Aqqad, Mohamed al-Tahar Ben Achour, Mohammed Abduh, Allal al-Fassi and their likes are of no less historical significance than Abu Tammam's, al-Mutannabi's, al-Tabari's, Sibawayh's, al-Ma'arri's, Ibn al-Haytham's, Ibn al-Nafis's, Ibn Rushd's and those of other famous scholars of Islamic civilization.

Works by Arab Muslim scholars embraced a wide range of subjects, as can be evidenced by the many extensive bibliographic encyclopedias of Arab scholars. Prominent classical works include the Baghdad bookseller Ishaq Ibn al-Nadim's "***Fihrist***" (Catalogue of Books), compiled in 377 A.H., the Ottoman Mohamed Bin Abdullah Kâtip Çelebi's (known as Hajji Khalifa d. 1657) ***Kashf al-zunun 'an asami al-kutub wa al-funun*** (The Removal of Doubt from the Names of Books and the Sciences), in addition to a variety of biographical dictionaries arranged by names of notable scholars (*Tarajim*) and the eras (*Tabaqat*) in which they lived.

In modern times, there emerged three established scholars of Damascene descent who rendered outstanding services to the Arab Islamic culture. These are:

- Muhammad Kurd Ali, who played a leading role in the establishment of the Arab Academy of Damascus. He compiled a six-volume history of Syria (***Khitat al- Sham***), first published in 1925.
- Umar Rida Kahhala, a famous bio-bibliographer, who compiled a fifteen-volume biographic dictionary of Arab authors (***Mu'jam al-Mu'allifin***) of which the introduction was first written in 1925. A sixteenth volume was added to the book.
- Salah al-Din al-Munajjid, who between 1970 and 1982 compiled a five-volume catalogue of Arabic manuscripts published in Beirut between 1954 and 1980, (***Mu'jam al-Makhtutat al-'Arabiyya min 1954 ila 1980***).

Damascene scholar Salah al-Din al-Munajjid served as the director of the Cairo-based Institute of Arabic Manuscripts, and was believed to be the precursor of the Arab-Islamic manuscript revival movement to come.

In addition to these three Damascene encyclopedias, there is a five-volume catalogue of works of Arab scholars (***al-M'ujam al-Shamil lil turath al-Arabi***

al-Matbu') (Comprehensive Dictionary of Printed Arabic Heritage). The book, compiled by scholar Muhammad 'Isa Salhiya, was released by the Arab League Institute of Arabic Manuscripts during the period between 1992 and 1997.

Considerable work has been done to document the Arab Islamic cultural heritage; most notable is the encyclopedic historiography of the city of Damascus (***Tarikh madinat Dimashq***) by renowned Damascene scholar Abu al-Qassim Ali ibn al-Hasan ibn Hibatullah ibn As_kir. This very interesting scholarly work, in sixty-nine (69) volumes, was edited by Mrs Sukayna al-Shihabi and published by the Damascus Arabic Language Academy. The effort made to edit this huge work is highly commendable.

Al-Furqan Foundation for Islamic heritage, which is based in London, is making considerable efforts to classify and publish with finesse a wide range of comprehensive indexes (*fihrist)* of Arabic manuscripts in various parts of the world.

Among the most prominent Western scholars who rendered immense services to the Arab Islamic heritage was the great German orientalist Carl Brockelmann (1868-1956). It took Brockelmann half a century to compile his huge six-volume encyclopedia (***Turakh Al-Adab Al-Arabi***) (The History of Arab Literature), which was translated from German into Arabic.

J.J. Reiske, another German scholar to have richly contributed to the Arab Islamic heritage, said more than two hundred years ago:

> "*Anyone who reads the history of literature will be surprised to find out that there are so many people in the Mashreq who were fully conversant with all kinds of literature, at a time when Europe was plunged into complete ignorance and barbarity. Nevertheless, historiography shows that the East and Europe have each contributed a great deal to the development of human culture and civilization.*"

In his foreword to the book (***Turath Al-Islam***) (The Legacy of Islam), German orientalist Joseph Schacht wrote:

> "*The word 'turath' in this book refers both to the contribution of Islam to human achievement in all its manifestations, and to the contact and influence Islam has with non-Muslim world. The book (The Legacy of Islam) is not primarily concerned with how other religions and civilizations might have influenced Islam, or with how in expanding far to the Mashreq (Turkey, eastern Indian lands and Afghanistan) and the Maghreb the Islamic civilization brought together diverse cultural*

and linguistic backgrounds. ***The book rather deals with Islam as a civilization, not only as a religion***."

How deeply the Arab Islamic civilization influenced and fascinated the Europeans is beyond imagination. Suffice it to note in this regard that some Christian authorities in Al-Andalus, especially bishop Álvaro of Córdoba, were scandalized at how many young Christians preferred the literary works and language of the Arabs to that of the Europeans. In this connection, Álvaro said:

"*Many of our brethren Christians read Arabic poems and tales, and study the works of Muslim theologians and philosophers, not to refute and criticize them, but rather to express themselves as elegantly as the Muslims would do in the Arabic language." In the 'College of Christ', Álvaro complained, scarcely one youth in a thousand would write a descent letter in Latin, whereas most could compete with the Arabs themselves in the composition of Arabic poetry, and would voice their admiration and appreciation for the Arabic literature.*"(4)

Such is the core of the Arab Islamic heritage in which we take immense pride, and from which we derive our authentic Arab and Islamic identity.

Heritage, in the broad acceptance we have explained, comprises three main elements:

1. Written and oral tradition.

2. Buildings, sculptures, pictures and ornaments.

3. Traditions, customs and behaviors.

Heritage as such is the main constituent part of the Arab Muslim identity in its deepest sense.

Identity: Significance and full extent

It should first be noted that there is a strong correlation between heritage and identity. They cannot exist in isolation from one another, both being constituent elements of the self and integral parts of individuals and communities.

Every nation has its own heritage and distinctive cultural identity of which they are either mindful or oblivious.

---

(4) Imara, Mohamed, ***Islam in the Mirror of Western Thought*** (Cairo: Dar Al-Fikr Al-Arabi) 108.

In his ***al-Kulliyat***, a dictionary of terminology and language differences, Abu al-Baqa' al-Kafawi distinguishes between the common quiddity and real nature (*mâhïyah)* of a thing, which indicates the permanent existence of a thing in a way that it (this existence) is apprehended intellectually, and the self identity (*huwiyyah*) of a thing, when the existent is perceived in its relation with other existents.(5)

In Al-Jurjani's ***al-Taarifat***, identity is defined as the absolute truth that enshrines facts amidst its folds like the nucleus that embodies the future tree.(6)

In contemporary literature, the term (*huwiyyah*) designates the fact of being the same in all respects, either to oneself or to a similar entity. The same definition is given in modern dictionaries, in which 'identity' stands for the absolute essence of an entity or an individual, the essence which embodies their intrinsic, distinctive qualities. It is also called the 'unity of the self'.

Our perception of the identity is based on our civilizational heritage. In the Arab-Islamic culture, 'identity' means to be distinct from others in all concerns. The term takes on three meanings: the **personification**, the **person themselves** and the **external existence**.

Whether we adopt the linguistic or modern philosophical acceptation of the term 'identity', the general sense does not change for that matter, as it will always connote the fact of being distinct from others or of being the same in all respects, that is to say to have specific characteristics, values and constituents that distinguish the individual and society from others.

In short, the cultural and civilizational identity of a given nation represents their immutable and characteristic traits, which confer upon the national personality a patina that distinguishes them from the other national personalities.(7)

After defining the scope of the terms *turath* (heritage) and huwiyyah (identity), we ought to ask ourselves the following two questions:

---

(5) Adnan Darwish and Muhamed al-Misri, eds. Al-Kafawi Abu al-Baqa', ***Al-Kulliyyat***, (Beirut: Al-Risala Institution, 1995) 961.

(6) Al-Jurjani, Al-Sharif Ali Ben Muhamed, ***Kitabu Al-Taarifat***, (Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah, 1995) 257.

(7) Altwaijri, Abdulaziz Othman, ***Al-Aalam Al-Islami Fi Asr Al-'Awlama***, (Cairo: Dar Ash-Shuruq, 2004) 46-47.

- How to safeguard the Arab Islamic heritage and the Arab Islamic cultural and civilizational identity in the context of a far-reaching globalization, whose leverage stretches out to the entire international community?
- More importantly, how can the requirements of national sovereignty, along with spiritual, cultural and civilizational specificities, tally with those of globalization?

The trend taken by globalization portends an adverse impact on both identity and sovereignty. The Western stance vis-à-vis the identity of peoples is conspicuously contradictory. While, on the one hand, the West takes great pride in its identity, to which it clings staunchly by the way, it refuses, on the other, to recognize the national identities of non-Western peoples, as it feels that globalization might lead to increased awareness about cultural and civilizational specificity.

Western thinkers take this to be the thorniest problem with which they are confronted. It is clearly evident that they have a confused understanding of the matter.

In a study published in the November and December 1996 issues of the ***Foreign Affairs*** Journal, under the title (***The West: Unique, Not Universal***), American thinker Samuel Huntington drew a balance between the concepts of 'modernization' and 'westernization'.

Huntington stated that non-Western peoples could not become an integral part of the Western civilizational texture albeit they consumed Western goods, watched American movies, and listened to Western music.

He then argued that the **heart of a culture**, however, **involves language, religion, values, traditions and customs**, indicating that the West inherited much from earlier civilizations, including most notably Classical civilization. Classical legacies in Western civilization, he underlined, are many, and include Greek philosophy and rationalism, Roman law, Western Christianity, Latin origins of European languages, separation of spiritual and temporal authority, rule of law, social pluralism and civil society, representative bodies, and individualism.

Samuel Huntington further said: "*Modernization and economic development neither require nor produce cultural westernization. To the contrary, they promote a resurgence of, and renewed commitment to, indigenous cultures* […]. *The time has come for the West to abandon the illusion of* universality and to promote the *strength, coherence and vitality of its civilization in a world of civilizations* […]."

He went on to explain that this required the unity of the West under the leadership of the United States of America, and delineation of the limits of the West, from the perspective of cultural homogeneity.

It should nevertheless be said that such was a courageous stance on the part of an interesting thinker.

Amidst these persistent cultural challenges, the following question must be addressed:

- Is globalization a new formulae of the civilizational confrontation waged by the West, in the general sense of the term 'West', against the identities of peoples and the cultures of nations in order to impose the hegemony of a unique culture and civilization over the globe ?

From this perspective, globalization proves to be absolutely inconsistent with the rules of international law, the reality of international relations, let alone the national economics, the national sovereignty and the principle of cultural diversity.

Should globalization proceed along this course, it will ultimately lead to the collapse of world stability by dint of eroding the gist of cultural and civilizational identity, and sapping the very bases of cultural coexistence among peoples.

Because of its extensively coercive approach, globalization will bring on a worldwide anarchy of thinking and conduct, reflected also in economics, trade, arts, literature as well as science and technology.[8]

In spite of all that, mankind cannot, at the present time, disentangle itself from the constraints of globalization in view of its pressing need for keeping abreast of the economic, scientific and technological trends of the New World Order. It can, however, devise a counter-cultural current apt to face up to the hegemonic drive of the phenomenon of globalization on the theoretical and practical levels, and to cope with its fall-outs pending **the emergence of new world powers that would act as opponents or at least counterweights to the power currently holding the reins of the world order**.

Six years ago, I published in Cairo a book titled (***The Islamic World and Globalization***). In it I wrote:

(8) Altwaijri.

> "*A group of futurists and strategists, mostly belonging to the West, concede that the first decade of the next century will witness the occurrence of a critical imbalance in the international power relationships on the political and economic levels, which will trigger a radical change in the trends of globalization. This will enhance the strength and prevalence of the international legitimacy resting on the rules of international law, not on the logic of power and triumph in cold war battles.*"(9)

The first decade is almost over, and many quick-paced changes have unfolded on the world scene which had an unintended, continuing knock-on effect on the global economy. We are particularly interested in how the global economic crisis affects the cultural and civilizational identities of peoples and nations, and how its attendant implications would seriously disrupt those societies which renegade their heritage and identity.

We can safely argue, through our direct experience of reality and close understanding of present-time changes, that **national identities are exposed to considerable risks**.

ISESCO's ***Cultural Strategy for the Islamic World***, which was adopted by the Sixth Islamic Summit Conference (Dakar, 1991), and approved in its amended version by the Fourth Islamic Conference of Culture Ministers (Algiers, 2004), gives an objectively precise definition of the concept of heritage. Heritage, as explained in the Strategy, is considered to be one of the aspects of the individual and collective creativity of a nation throughout their long history. Heritage is also considered to be the best expression of the cultural identity and the cultural character of a nation.

Heritage includes numerous cultural, artistic and intellectual forms inherited from the early and recent past of a nation. It is the product of the human mind and differs in time and place. In its general acceptance, it is related to the material heritage including archaeological monuments or things discovered through excavations or the antiquities available in museums which represent different ages. It also includes the intellectual heritage hailing from the works of creative scholars and thinkers each in their time.

---

(9) Altwaijri.

There is also social heritage, which takes the form of customs and traditions prevailing in society and their effect on the individuals of that society. Therefore, this kind of heritage has a strong link with the cultural practices and the linkage between the present and past of a nation and its outlook to the future.

It was also stated in the Strategy, "*As we believe that the main source of the Islamic heritage is the Holy Quran and the sound tradition of the Holy Prophet (PBUH) which brought high scientific, intellectual and cultural achievement, we should not confine the sense of our heritage to the mere organized maintenance of monuments, their enlistment and exhibition, to the mere continuation of the traditional ceremonies, or to the emotional attachment to the vestiges of the past. Heritage is rather one of the most important means for cultural identity entrenchment.*"

The Strategy, which provides a roadmap for the Muslim Arab Ummah to protect its heritage and preserve its identity, further stresses: "*We also reject the sanctifying of the Islamic heritage, bearing in mind that it was the understanding of man to the revelation and the interaction with the established norms of the universe, a product, however, that is neither part of revelation but that's human creativity related to revelation.*"

"Therefore, it is our view that a critical objective study of the heritage is of use and that it forms a part of the attention to be accorded to heritage. Culture that dares to undertake auto-criticism of its history and draws lessons from its heritage could mould its future heritage with a creative spirit in order to keep pace with the changes without renouncing its originality. Those who discover, understand and criticize heritage would be better equipped to maintain continuation through changes."

The Arabic language, it must be admitted, is another key element of heritage and a major determinant of national identity.

The fine record of achievement by Muslim scholars in various religious and worldly sciences confirmed that Arabic is a flexible language, that it can be developed and expanded to accommodate various sciences, and that it has the capacity to adapt itself to the scientific, intellectual and psychological needs. The Holy Quran managed, with its miraculous textual nature, to penetrate into the minds of millions of people. Muslims built their thinking and civilization on the basis of this Holy text. Thus, the Arabic language became a permanent receptacle for Muslims to understand the Quran and appreciate the immense wealth of Islamic heritage.[10]

(10) ***Cultural Strategy for the Islamic World***, (Rabat: ISESCO, 2001).

Bearing in mind that much of the Islamic intellectual works appeared in other languages in the non-Arab Islamic countries, though mainly transcribed in the Arabic script, it would be necessary to pay attention to these languages and to endeavour to publicise non-Arabic material on the Islamic culture. ISESCO is actively engaged in this area.

The Islamic heritage - the outcome of sciences and arts, historic and architectural glories and their ongoing arts and industries created by Muslims - is a source of Islamic culture and a constituent element of the Arab Muslim identity. Indeed, most of it is considered to be an important part of human heritage which can neither be denied nor ignored.

The Islamic heritage also manifests itself in a set of social institutions such as waqfs, bookstores, academic bodies, charity and even animal-care facilities, and cultural institutions such as Quranic schools. It also finds its true expression in a number of religious and social manifestations such as celebrations of religious feasts and festivals.

☆ ☆ ☆

On the preservation of heritage

It is therefore the collective responsibility of Muslims to preserve our heritage and maintain our identity, which is a matter of pride to all of us, and serves as a **real bulwark against all forms of external threat**.

In this increasingly unstable world, serious challenges are posed to human societies which threaten to undermine their cultural and civilizational specificities, religious integrity and national identity. Worse even, the fast pace of these dangerous changes, amid a unilateral world order, leaves little chance to successfully rise up to them.

It is therefore a vital necessity and a first-rate duty to safeguard our Arab Islamic identity, culture and civilization.

Preserving a thing requires a five-step approach consisting of: **attendance**, **maintenance**, **prevention**, **surveillance** and **observance**. Any such effort is futile unless these parameters are concatenated together into one whole.[11]

(11) Altwaijri, Abdulaziz Othman, **On the Civilizational Edifice of the Islamic World**, Vol. 7 (Rabat: ISESCO, 2004) 148.

In addition, preservation occurs on two major levels, **internal and external**. One often tends to care for that which is infinitely precious to them, and would spare no effort to always keep them in their possession. And what else is more invaluable and worthy of protection than our heritage and identity! This is what gives meaning to existence.

At the interior level, where a thing - a sacred religious or moral principle or a precious object of great historical significance - is believed to be highly invaluable, people would tenaciously cling to them.(12)

Externally, for a thing to be best preserved it needs strong resolve and resourcefulness to achieve the sought-after objectives, regardless of difficulties and obstacles.

It is extremely important to see to it that one preserves what they hold on to. The more precious an object is, by virtue of their price or intrinsic value, the more incessant is the need for decisive action, with clearly stated objectives. Any effort which does not observe these conditions will not pay off.

Without hard work and dedication, there is no chance to maintain in safety from any sort of harm the thing one holds dear in their heart.

Action in this regard requires that the immediate environment and prevailing conditions be carefully examined, in order to closely see how these positively or negatively affect the ability to achieve the desired goals. Failing to better understand changes and conditions will only take away from the effort made to reach the sought-after objectives.

It is important, in order to successfully preserve a thing, to fully understand their core, value and impact on their immediate environment, tangible and intangible. The more we apprehend the significance of a thing, regardless of their nature, the more we will want to retain and keep them unaltered. There are certain obligations that have to be met when, out of genuine belief or dire necessity, we ardently desire to preserve a thing.

Both levels, internal and external, are closely associated, especially when it comes to a fundamental principle or a religious sanctity or an ultimate value. This amounts to a principal religious obligation.(13)

---

(12) Altwaijri 147.

(13) Altwaijri, Abdulaziz Othman, ***Al-Aalam Al-Islami Fi Asr Al-'Awlama***, p. 45.

This point needs to be emphasized and re-emphasized, all the more as the dangers posed to our identity and heritage are real and should not be underestimated.

☆ ☆ ☆

Identity: The bulwark against dissolution and destruction

Heavy challenges are weighing on the Arab Muslim Ummah, threatening to undermine its identity, destroy its core specificities, compromise the **spiritual and cultural security** of its people, and take away from its everlasting Arab Islamic civilizational mission.

We are in the midst of a savage war, waged against our history, heritage, identity and the language of our sacred book, and should therefore head off every attempt to distort our history. This is how we can march safely and serenely into the future with a well-conceived vision. For how else can we achieve civilizational development and social progress, if not with a genuinely deep understanding of our cultural heritage? What other ways are there to achieve this goal, if not by using critical thinking to assess which values are genuinely ours and which are not?(14)

Heritage, the distinctive feature of a nation's **culture and civilization**, is a crucial component of identity, itself a reflection and vehicle of heritage. Preserving heritage in diverse forms and manifestations is an obligation and a mission, it being understood that heritage is the treasure trove and cumulative product of human experience in various realms of knowledge. Failing to preserve heritage is breaking the fetters of one's identity and renouncing one's cultural origins. For this reason, the protection and preservation of cultural heritage in all its forms for future generations is an avoidable imperative.

That the Arab Muslim civilization has contributed significantly to human development - in intellectual, cultural, literary, scientific and other fields - is an established fact and a matter of pride. The Arab Muslim heritage is the outcome of a rich interaction of people from various ethnic, religious and cultural backgrounds (Arabs, Persians, Romans, Indians, Turks and others) throughout centuries of shared existence and mutual exchange of principles, values, ideas and thoughts in various realms of knowledge. It should be noted that heritage does not conflict

(14) See Jalal Shawqi's ***Globalization: Identity and Course: An Arab Perspective***, (Cairo: Ad-Dar Al-Masriyah Al-Lubnaniya, 2007).

with renewal and regeneration of ideas, perceptions, approaches and systems. **It constitutes a solid benchmark for a better life**.

Identity is the bulwark against cultural absorption. This means that by preserving heritage we preserve our identity.

In his (***Al-Awlamah: Al-Huwiyyah wa Al-Masar: Ruyah Arabiyyah***) (Globalization: Identity and Course: An Arab Perspective) Arab writer Shawqi Jalal said:

> "The next battle, President Shimon Peres of Israel argued, **will not be over land or borders, but over the Jewish identity and cultural belonging**." Commenting, Shawqi said, Shimon Peres's words show **an ideological stance derived from the Torah, but which runs counter to the natural flow of history. We, Shawqi further stressed, need to clearly understand the value system and ideational traditions that form the basis for a history, toward a greater sense of belonging**.[(15)]

This is what the enemy, an artificial state unwarrantedly planted on the usurped territories of Palestine by Western colonial powers, takes as their battle at this point of time in the history of human civilization.

I want to finally stress that the challenges posed to us, at this very critical juncture, are such that a firm, concerted stance is needed to protect and safeguard our heritage, identity and existence

(15) Jalal.

L'ISLAM AUJOURD'HUI

Revue périodique de l'Organisation islamique pour l'Education, les Sciences et la Culture -ISESCO-

Publiée en trois langues : l'arabe, l'anglais et le français

N° 28 - 27e année

1433H / 2012

PATRIMOINE ET IDENTITE

Dr Abdulaziz Othman Altwaijri(*)

La première chose qui vient à l'esprit quand on évoque le terme «**patrimoine**» est le propos divin dans le verset dix-neuf de la sourate Al Fajr : «**Qui dévorez l'héritage avec une avidité vorace**».

D'après les commentateurs, ce propos s'adressent à ceux qui «assemblent l'héritage et en prennent possession sans faire la distinction entre leurs parts et celles qui échoient à leurs cohéritiers ou entre ce qui a été accumulé par la personne dont ils héritent dans la légalité et ce qu'elle a amassé par tricherie et fourberie ou par d'autres moyens illégaux».

Il est clair que le sens donné à la notion de patrimoine dans le saint Coran est différent de la signification donnée de nos jours à ce terme. En fait, ce sens s'élargit pour subsumer sous ce dernier tout ce qui nous a été légués par les ancêtres en valeur aussi bien matérielle que symbolique.

Au sens strictement linguistique, le terme "*irth*" est le substantif du verbe "*warata*" qui devient "*yarithu*" au présent. "*al-mirâth*" est un autre substantif dérivé du verbe susmentionné. Tous les deux signifient ce que les gens héritent les uns des autres. La teneur conceptuelle de ce terme couvre tout l'héritage légué par la communauté dans les domaines religieux, culturel, folklorique, scientifique, architectural et civilisationnel. L'origine du terme est le verbe "*yarithu*". Dans la forme substantive la lettre "W" est remplacée par la lettre "t". Cette substantivation est obtenue sur le mode que l'on appelle le faux schème.

Dans son acception moderne courante, le patrimoine est tout ce qui nous est parvenu sous forme écrite, dans différentes sciences, ou matérielle dans les arts divers, c'est-à-dire ce qui a été produit par la pensé et la pratique dans différentes périodes de l'histoire humaine.

Chaque nation possède donc un patrimoine qui est le fruit de sa pensée et de ses croyances et le résultat de son effort intellectuel, spirituel et créatif.

(*) Directeur général de l'Organisation islamique pour l'Education, les Sciences et la Culture (ISESCO), Secrétaire général de la Fédération des Universités du Monde islamique (FUMI). Texte d'une conférence donnée à Damas le 7 avril 2010.

Il faut apporter ici une précision que je juge de haute importance. Le patrimoine, étant le produit de la raison humaine, ne s'étend pas à la révélation divine. Au-delà de leurs orientations et références intellectuelles respectives, trois écoles de pensée contemporaines s'accordent à établir la pertinence de cette remarque importante. Elles sont représentées par trois penseurs.

L'un des trois est le chercheur et penseur égyptien Anouar Al-Joundi, que Dieu lui accorde sa miséricorde, qui écrit dans son encyclopédie «**Maâlamat Al Islam**» : «il faut toujours distinguer clairement entre le patrimoine et l'héritage. Nous devons toujours être en mesure d'expliquer clairement les termes (**l'ancien, le passé et le patrimoine**) et de la relation qui existe entre eux et l'héritage islamique authentique. De même, il faut **toujours distinguer entre l'Islam en tant que religion et mode de vie, doté de constance, revêtu d'un caractère divin et sacré et représenté par le saint Coran et la Sunna du Prophète, d'une part, et d'autre part par le patrimoine qui est un effort inventif déployé par les musulmans pour décliner en détail cet héritage, l'approfondir et en incarner l'esprit dans les différentes périodes et circonstances historiques et dans les différents évènements et environnements**»(1).

Le second est le penseur marocain Mohammed Abid Al Jabiri, que Dieu lui accorde sa miséricorde, qui écrit dans son livre **Introduction au saint Coran** : «**Nous avons dit à maintes reprises et nous disons encore une fois que nous ne considérons pas le Coran comme faisant partie du patrimoine**. Et nous soulignons toujours ce que nous avons déjà soutenu dans d'autres écrits, à savoir que nous considérons tous les modes de compréhension qui ont été élaborés par les uléma musulmans pour leur propre compte concernant le Coran, entendu aussi bien au sens de phénomène coranique tel que nous l'avons ici défini qu'en termes de récits, d'instructions ou d'interdictions comme des éléments entrant dans le patrimoine, parce qu'ils constituent une œuvre humaine»(2).

Le troisième est le grand chercheur académique et référence inépuisable Chaouki Daïf, que Dieu lui accorde sa miséricorde, qui explique dans son excellent livre : **Sur le patrimoine, la poésie et la langue** sa théorie qui s'articule autour de «l'unité du patrimoine religieux et scientifique» pour la communauté arabo-musulmane. **Il s'agit d'une théorie qui insiste sur la**

(1) **Maâlamat Al Islam**, tome 2, p. 123, Al Maktab Al Islami, Beyrouth, 2ème édition, 1982.
(2) **Introduction au saint Coran**, p. 26, tome 1, le Centre d'études de l'Unité Arabe, Beyrouth, 2ème édition, 2007.

complémentarité des différentes composantes du patrimoine dans le cadre d'un tout intégré. Il écrit à ce propos : «Notre communauté arabe possède un même patrimoine revêtant plusieurs aspects spirituel, intellectuel et littéraire. **Sa source spirituelle est le saint Coran qui est un miracle à nul autre pareil**. C'est une lumière qui guide l'homme vers le droit chemin et le tire des ténèbres vers le monde lumineux de Dieu, un monde organisé conformément à la loi coranique porteuse de valeurs spirituelles pures. Ces valeurs fondent une foi divine, des cultes et des vertus qui sanctifient son âme et purifient son cœur. La loi coranique le dote également de facultés intellectuelles qui permettent de le mettre à l'abri de la magie, de la voyance et du mythe et le préparent à acquérir la science et le savoir et à tirer profit de la vie. Elle est tout aussi porteuse de valeurs sociales qui le prédisposent à entretenir avec les autres membres de sa communauté des rapports régis par le principe de justice et le principe d'égalité dans l'ensemble des droits et obligations»[(3)].

Cet accord entre les trois écoles précitées concernant la définition du concept de patrimoine nous permet de dire que la culture arabe contemporaine dans sa tendance générale ne tourne pas le dos au patrimoine de la communauté. Même ceux qui ont abordé le thème du «**patrimoine et la révolution**» ont fini par faire leur la conception réaliste du patrimoine et sa véritable signification. Plus encore, le penseur arabe Mohammed Abed Al Jabiri qui a publié, il y a environ trente ans déjà, son livre : **Nous et le patrimoine**, s'est ravisé dans son tryptique encyclopédique : **Introduction au saint Coran**, en annonçant son retour aux fondements.

D'une manière générale, parmi les points forts du patrimoine arabo-musulman se trouve le fait qu'il est vivant et s'inscrit dans la continuité régulière de l'histoire, interagit avec les changements qui se produisent dans la vie sans pour autant perdre de son authenticité et de sa singularité. Il tire sa force vivante de son enracinement dans les différents domaines de la connaissance : la langue, l'histoire, la culture, la législation, la littérature, les monuments, la foi, la morale, la sagesse, la philosophie et les sciences. Ses racines vivantes qui ne cessent de s'approfondir et de croître ne peuvent, à titre d'exemple, être comparées aux origines du patrimoine grec.

La glorification et la protection du patrimoine est une responsabilité sacrée. Il est difficile à ressusciter un passé anéanti. Le plus odieux des crimes que puissent commettre les gens est de détruire le patrimoine qu'ils ont hérité de leurs

(3) **Série de la Librairie des Etudes Littéraires** n°100, Dar Al Maârif, le Caire, 1987.

ancêtres. Il n'y a pas là l'expression d'une émotion qui peut être comprise comme un signe trahissant quelque tendance rétrograde ou conservatrice. Il s'agit plutôt d'une tendance spontanée à laquelle nous sommes tous enclins.

L'orientation vers l'avenir ne s'oppose nullement à la préservation du patrimoine. Bien au contraire, c'est la préservation du patrimoine comme référence qui rend la vision que nous nous donnons de l'avenir plus élaborée, plus claire et plus large.

Parmi les passages au contenu profond que j'ai eu l'occasion de lire en la matière j'aimerais citer celui du penseur et orientaliste Jacques Berque : «L'avenir des Arabes est tributaire de la revivification du passé, parce que l'avenir est souvent le passé ou le présent qui aura été revivifié et vécu à nouveaux frais».

Nehru, le célèbre leader indien, dit lui à ce propos : «Nous devons nous projeter dans l'avenir et œuvrer de façon acharnée pour réaliser nos aspirations, tout en ayant à la conscience notre patrimoine passé pour y puiser la force et la détermination. Notre meilleur avenir est celui qui s'assoie sur les bases établies aussi bien dans le présent que dans le passé. Si nous nions le passé et nous cherchons à nous en débarrasser, cela équivaut à nous déraciner nous-mêmes de notre terre ; alors en sortant de cette terre, nous serons comme une plante qui ne reçoit plus les tropismes qui la nourrissent et la maintienne en vie».

Le patrimoine ne se limite donc pas à une période historique déterminée. Tout ce qu'un auteur laisse derrière lui à son décès comme œuvre est un patrimoine intellectuel. Ainsi, tout ce qui a été écrit par Chawki, H'afid, Ômar Abou Richah, Taha Hussein, Al-Akkad, Mohammed At-taher Ibn Âchour, Mohammed Abdou et bien d'autres est un patrimoine égal en valeur aux œuvres d'Abou Tammam, Al Motanabbi, At-tabari, Sibaoueh, Al Maârri, Ibn Al-Haïtham, Ibn An-nafis, Ibn Rochd et bien d'autres sommités de la civilisation musulmane.

Le patrimoine arabe qui est la production intellectuelle qui nous a été léguée par les savants arabes et musulmans couvre tous les domaines de la connaissance. Nous pouvons connaître ce patrimoine en consultant les ouvrages bibliographiques qui constituent une sorte d'inventaire des titres des livres arabes. Les plus anciens et les plus célèbres de ces ouvrages sont **Al Fahrast** de Mohammed Ibn Isaac An-nadîm Al Warrâk qui a commencé l'établissement de cette bibliographie à Bagdad en 377 de **l'Hégire et Kachf Ad-dunûn an Asâmi Al Kutub wa Al Funûn**». L'établissement de la bibliographie des grands livres et arts supérieurs du savant turc Mohammed Ibn Abdallah, connu sous le nom de Haji Khalifa, décédé en 1067. Il existe d'autres ouvrages biographiques qui

portent sur les différents domaines de production intellectuelle et les savants qui y participent.

A notre époque, ont vu le jour à Damas trois personnalités qui ont rendu au patrimoine arabo-musulman de bons et loyaux services :

- Le savantissime Mohammed Kurd Ali, président fondateur du Complexe scientifique de Damas, auteur de l'ouvrage intitulé : **Khutat Ach-châm**». Celui-ci a été publié la première fois en 1925 et contient six volumes.
- Le grand chercheur Omar Reda Kahâlah, auteur de l'encyclopédie intitulée : **Moâjam Al Moalifîne** (Dictionnaire des auteurs). L'ouvrage contient les biographies des auteurs arabes. Il est paru en 15 tomes en 1952. L'auteur y a ajouté un seizième tome sous forme d'addendum.
- Le spécialiste de l'authentification Salah Ed-dine Al-Mujannad, auteur de l'ouvrage intitulé : **Le dictionnaire des manuscrits arabes, ouvrage** publié à Beyrouth en cinq tomes entre 1970 et 1982.

Le professeur Salah Ed-dine Al Mojannad, originaire de Damas, était le directeur de l'Institut des manuscrits arabes au Caire. Il a posé les fondements nécessaires à la résurrection du patrimoine arabo-musulman manuscrit.

Outre ces trois encyclopédies qui ont été écrites par des auteurs damascènes, il y a l'ouvrage intitulé : **Al Mu'jam Ach-châmil li torâth Al Ârabi Al Matbu'a** (Dictionnaire complet du patrimoine arabe imprimé), qui a été publié au Caire, en cinq tomes, pendant la période allant de 1992 à 1997, par l'Institut des manuscrits arabes relevant de la Ligue des Etats Arabes. Il a été élaboré par Mohammed Issa Salhiya.

Parmi les plus importants travaux documentaires consacrés au patrimoine et qui méritent d'être salués il y a ceux accomplis par le Centre de la Langue Arabe de Damas. Cette institution a publié l'encyclopédie intitulée : **L'histoire de la ville de Damas**, œuvre du grand historien damascène Abu Al-Kâssim Ali Ibn Al Hassan Ibn Hibat Allah Ibn Assakir et établie par la professeur Soukaïna Ach-chihâbi. Cette gigantesque œuvre culturelle consacrée au patrimoine est d'une grande utilité. Jusqu'à présent, soixante-neuf tomes de cette encyclopédie ont été publiés, et ce grâce à l'effort appréciable déployé par cette universitaire.

L'institution «Al Forkan» pour le Patrimoine musulman dont le siège se trouve à Londres a fourni de louables efforts en classifiant un ensemble de bibliographies exhaustives des manuscrits arabes existant dans plusieurs régions du monde. Elle a pris également le soin de les publier dans une belle et excellente édition.

De leur côté, les orientalistes ont porté un intérêt particulier au patrimoine arabo-islamique. Nous nous contentons ici d'un seul exemple qui illustre de façon claire l'ampleur de l'effort extraordinaire consenti par les orientalistes au service du patrimoine arabo-musulman. Il s'agit du travail accompli par le grand orientaliste allemand Karl Breukelman (décédé en 1956) qui a passé un demi-siècle dans la rédaction de sa grande encyclopédie «**L'histoire du patrimoine arabe**». Celle-ci est traduite en arabe sous le titre : **Târikh Al Adab Al Ârabi** et publiée en six tomes.

Mais nous ne pouvons évoquer l'orientalisme allemand qui a mis ses recherches au service du patrimoine arabo-musulman sans citer ce qui été écrit, il y a déjà plus de deux siècles, par l'orientaliste J. J. Reiske : «Celui qui lit l'histoire de la littérature, sera étonné de constater qu'il y avait plusieurs hommes qui étaient versés dans tous les genres littéraires, à un moment où l'Europe était plongé dans les ténèbres de l'ignorance et de l'illettrisme. Il sera également intéressant de savoir dans quelle mesure chacun de ces hommes a contribué au développement de la culture et du patrimoine humains».

Un autre orientaliste allemand, Joseph Schacht, écrit dans l'introduction de son livre intitulé : **Patrimoine de l'Islam**»: «le terme «patrimoine» revêt deux significations dans ce livre. La première se réfère à la contribution de l'Islam aux multiples projets humains. La seconde renvoie au contact et à la rencontre de l'Islam avec son environnement non musulman et aux différentes sortes d'influences qu'il y a apportées. En fait, ce livre ne s'intéresse pas aux influences qui auraient pu être exercées sur l'Islam par les religions et les civilisations des régions environnantes, ni aux différences qui se sont déclinées dans le cadre de la civilisation musulmane entre les territoires qui, du Maroc jusqu'en Afghanistan et de la Turquie jusqu'au pays de l'Inde orientale, en faisaient partie. Ceci ne veut nullement dire que telle étude comparative serait moins intéressante et moins passionnante. **Ce livre, «Le patrimoine de l'Islam», conçoit et traite l'Islam en tant que civilisation et non seulement en tant que religion»**.

A vrai dire, l'influence du patrimoine arabo-musulman a exercé une influence très forte et très profonde sur l'Europe. En effet, celle-ci était dans une attitude d'admiration extrême devant ce patrimoine. Il suffit ici de rappeler le sentiment de mécontentement exprimé par Alvaro, à cette époque évêque de Cordoue, à l'égard de nombre d'espagnols qui se ruaient sur la littérature arabe au détriment de la littérature européenne. Il dit à ce propos : «Nombre de nos coreligionnaires lisent les poèmes et les récits arabes et étudient les ouvrages des uléma et des philosophes musulmans. Ils ne le font pas dans une perspective critique et de réfutation, mais pour apprendre comment l'on peut écrire en langue arabe de façon

précise et élégante. Tous les jeunes gens qui font preuve d'un génie remarquable ne connaissent que la langue et la littérature arabes et disent haut et fort et dans tous les milieux que cette littérature force l'admiration.»(4)

C'est bien là que réside l'essence de notre patrimoine arabo-musulman qui constitue notre héritage civilisationnel, qui est la source de notre fierté et dont émergent la spécificité distinctive de notre identité arabo-musulmane.

Sur la base de la teneur conceptuelle ici définie du patrimoine, celui-ci est constitué de trois composantes :

- **La première composante** : les supports écrits et lus ;
- **La seconde composante** : les édifices, les sculptures, les dessins et les motifs ;
- **La troisième composante** : Les us, coutumes et comportements.

Partant, cette conception scientifique, le patrimoine de la communauté arabo-musulmane renferme son identité au sens profond du terme.

L'identité : concepts, significations et implications :

Nous devons d'abord préciser qu'il existe une corrélation étroite entre le patrimoine et l'identité. En fait, à défaut de patrimoine qui constitue la base et la condition d'émergence et de configuration de l'identité, celle-ci ne peut exister. De même, n'est patrimoine qui ne fonde pas d'identité. Le patrimoine et l'identité sont alors deux éléments interdépendants du moi et de la personnalité individuelle et collective.

Chaque nation possède un patrimoine (qui est soit connu soit inconnu) qu'il faut découvrir. Elle possède également, qu'elle en ait ou non conscience, une identité qui la distingue des autres nations.

Dans son ouvrage **Al Kuliyât**, Abu Al-Bakâ' Al-Kafaoui écrit : «L'essence d'une chose en tant que réalisation est appelé vérité ; elle est dite identité lorsqu'elle en est la personnification. Mais lorsqu'elle est d'une portée plus générale, elle est appelé catégorie». Il écrit aussi : «La chose perçue par la raison comme étant formulée dans la réponse à la question «quoi ?» est dite catégorie ; lorsque son existence au monde extérieur est prouvée et qu'elle se distingue des autres choses, elle est dite identité.»(5)

(4) Dr Mohammed Imara, **L'Islam au regard de la pensée occidentale**, p. 108, Dar Al Fikr Al Arabi, le Caire.
(5) Abu Al Bakâ'a Al-Kafaoui, **Al Kuliyât** (les catégories), p. 961, établi par Adnane Darwich et Mohammed Al- Misri, Moassat Ar-rissalah, Beyrouth, 1995.

Dans le livre d'Al-Jurjâni intitulé : At-taârifât (les définitions), l'identité est la vérité absolue qui renferme les vérités, à l'instar du noyau qui renferme l'arbre dans l'inconnu absolu.(6)

Le terme «*hawiyya*» est utilisé dans la littérature contemporaine pour signifier «*identité/identity*» qui exprime la propriété de l'identification, précisément l'identification de la chose à elle-même ou à ce qui en est l'exemplaire. La définition de ce terme par les dictionnaires modernes ne diffère pas de cette signification. En effet, il y est défini comme étant la vérité absolue de la chose ou de la personne. Cette vérité renferme les attributs essentiels de cette chose ou de cette personne. Ces attributs les distinguent des autres choses ou des autres personnes. L'identité signifie également l'unité du moi.

Partant de ces définitions, la compréhension que nous nous donnons de l'identité repose sur notre patrimoine civilisationnel. En fait, l'identité dans notre culture arabo-musulmane est ce qui nous distingue des autres sous tous les rapports. Le terme «identité» revêt trois significations : **la personnification, la personne elle-même et l'existence externe.**

Ainsi, que nous utilisions la signification linguistique du terme «identité» ou le concept philosophique moderne subsumé sous ce même terme, sa signification générale ne change pas et se réfère aux caractéristiques distinctives et à l'identification à soi, c'est-à-dire les caractéristiques du moi, ce qui distingue l'individu ou la société des autres et qui renferme ses caractéristiques, ses traits distinctifs et ses valeurs.

Nous concluons à l'idée que l'identité culturelle et civilisationnelle d'une nation déterminée est le tronc constant, essentiel et commun constitué des traits généraux et qui distingue la civilisation de cette nation de celles des autres nations et imprime à la personnalité nationale un caractère qui la distingue des autres personnalités nationales(7).

Une fois que l'on a défini les principes généraux du patrimoine et de l'identité, on est en droit de poser les deux questions suivantes :

- Comment préserve-t-on le patrimoine arabo-musulman et l'identité culturelle et civilisationnelle arabo-musulmane dans un contexte marqué par la mondialisation qui déploie actuellement sa domination tentaculaire sur la communauté internationale ?

(6) Ach-charif Ali Ibn Muhammad Al-Jurjâni, ***At-taârifat*** (les définitions), p. 257, Dar Al Kutub Al-Ilmiyah, Beyrouth, 1995.

(7) Dr Abdulaziz Othman Altwaijri, **Le monde musulman à l'heure de la mondialisation**, pp. 46-47, Dar Ach-chorouk, le Caire, 2004.

- Comment peut-on concilier les exigences de la souveraineté nationale et les caractéristiques spirituelles, culturelles et civilisationnelles, d'une part, et celles de la mondialisation, d'autre part ?

L'ampleur prise par la mondialisation a tendance à exercer une influence négative aussi bien sur l'identité que sur la souveraineté. Quand on examine l'attitude de l'Occident envers les identités des peuples, l'on constate, non sans étonnement, qu'elle repose sur une contradiction. D'une part, il est fier de son identité et soucieux de la préserver ; d'autre part, il refuse de reconnaître les identités nationales des peuples du monde, conscient qu'il est du fait que la mondialisation amène à une conscience plus aiguë des caractéristiques culturelles et civilisationnelles.

Et c'est bien cette conscience croissante qui, aux yeux de l'Occident, constitue le plus grand problème auquel il se trouve confronté. Ses penseurs expriment, d'une manière on ne peut plus claire et franche, ce dilemme intellectuel.

Dans son étude publiée dans le numéro des mois de novembre et décembre 1996 de la revue Affaires Etrangères, sous le titre étrange de «**L'Occident : unique et non universel**», Samuel Huntington fait la distinction entre la «modernisation» et l' «occidentalisation». Il écrit : «Les peuples du monde non occidentaux ne peuvent s'intégrer au tissu civilisationnel de l'Occident, même s'ils consomment les marchandises occidentales, regardent les films américains et écoutent la musique occidentale. En fait, **l'esprit de toute civilisation réside dans la langue, la religion, les valeurs et les us et coutumes** et la civilisation de l'Occident se distingue par le fait qu'elle a hérité des civilisations grecque et romaine et de la civilisation du christianisme occidental. Le fait que les peuples qui y appartiennent parlent des langues ayant des origines latines, la séparation entre la religion et l'Etat, la souveraineté de la loi, le pluralisme dans le cadre de la société civile, les structures de représentation et la liberté individuelle ».

Samuel Huntington ajoute à ce propos : «La modernisation et la croissance économique ne peuvent induire l'occidentalisation culturelle dans les sociétés non occidentales. Bien au contraire, elles entraîneront plus d'attachement aux cultures autochtones. **C'est pourquoi il est temps que l'Occident cesse de se laisser bercer par l'illusion de la mondialisation et d'accroître la force de sa civilisation, de son intégration et de sa vitalité dans l'épreuve de force qui l'oppose aux civilisations du monde. Ceci exige de construire l'unité de l'Occident sous le leadership des Etats-Unis d'Amérique et de tracer les frontières du monde occidental dans le cadre de l'homogénéité culturelle.**»

Tout bien réfléchi, l'on ne peut que saluer le courage intellectuel de ce penseur qui suscite l'intérêt.

Dans le contexte du débat intellectuel qui tourne autour d'une problématique qu'on est appeler à traiter, nous jugeons pertinent de poser la question suivante : la mondialisation qui vise à l'oblitération et à l'hybridation des identités est-elle une nouvelle forme d'affrontement civilisationnel engagé par l'Occident dans son sens général contre les identités des peuples et les cultures des nations dans le but d'imposer l'hégémonie d'une seule culture et de soumettre le monde à la domination d'une seule civilisation ?

L'identité ainsi imposée à la communauté internationale s'oppose complètement aux règles de droit et à la nature des relations internationales. Plus encore, cette tendance est complètement contraire à la loi divine de la pluralité et à la loi de la diversité culturelle. Si la mondialisation s'engage plus avant dans la direction qui lui est tracée, ce serait un signe sinistre d'effondrement de la stabilité mondiale, parce que cette identité imposée par contrainte aux sociétés humaines embarquées à bord de cette mondialisation débridée assène un coup fatal à l'identité culturelle et civilisationnelle des peuples et sape les fondements sur lesquels repose la coexistence entre ces derniers. En outre, cette mondialisation totalitaire et coercitive sèmera l'anarchie à travers le monde, aussi bien au niveau de la pensée et du comportement que dans les domaines de l'économie et du commerce, des arts, des lettres, des sciences et de la technologie[8].

Malgré cette tendance alarmante, l'humanité n'est pas en mesure actuellement de se libérer des pressions exercées sur elle par la mondialisation qui envahit les identités, neutralisent les spécificités et détruit les patrimoines, parce qu'elle se trouve dans le besoin pressant de s'adapter aux exigences du nouvel ordre mondial dans ses orientations économiques, scientifiques et technologiques et aux changements qui se produisent dans ces domaines à l'échelle internationale. Elle est, cependant, en mesure de constituer un contre-courant culturel humain pour affronter l'esprit hégémonique qui anime cette mondialisation en tant qu'idée et système, mais également en tant que pratique et pour neutraliser les effets, en attendant **l'émergence de nouvelles puissances qui constitueront un contrepoids ou, au moins un concurrent qui parlera d'égal à égal, à la puissance qui est actuellement aux commandes de l'ordre mondial**.

J'ai publié au Caire il y a six ans un livre qui s'intitule : Le monde musulman à l'heure de la mondialisation où on peut lire : «Un nombre de spécialistes dans

(8) Dr Abdulaziz Othman Altwaijri, op.cit.

le domaine des études prospectives et stratégiques, en majorité des occidentaux, mettent en avant l'idée selon laquelle une évolution décisive aura lieu à l'échelle internationale dans les rapports de pouvoir aux niveaux politique et économique. Cela se produira dans la première décennie du XXI^{ième} siècle. Il en résultera un changement radical dans les tendances de la mondialisation. Ce changement de tendance renforcera, consacrera et fera prévaloir la légalité internationale basée sur les règles de droit international et non sur la logique du plus fort ni sur la fin victorieuse de la guerre froide.»[(9)]

Cette première décennie du siècle prendra bientôt fin. Des changements rapides ont eu lieu sur la scène internationale. Plus encore, de violentes secousses ont failli provoquer l'effondrement de l'économie mondiale. Les répercussions de ces secousses ne font qu'empirer. Ce qui nous intéresse à ce propos ce sont les influences de la crise économique mondiale sur les identités culturelles et civilisationnelles des nations et des peuples et les changements qu'elles entraîneront et dont nous croyons qu'ils seront durs à subir par les sociétés qui ne prennent pas soin de leurs patrimoines et qui abandonneront leur identité.

En partant de notre observation de la situation du monde et des changements qui ont lieu autour de nous, nous pouvons aujourd'hui, et en toute confiance, dire que **l'identité nationale court beaucoup de risques**.

La **Stratégie culturelle pour le monde islamique**, élaborée par l'Organisation Islamique pour l'Education, les Sciences et la Culture (ISESCO), adoptée par la sixième Conférence du Sommet Islamique, tenue à Dakar en 1991 et dont la version amendée a été adoptée lors de la quatrième Conférence Islamique des Ministres de la Culture, tenue à Alger en 2004,présente de manière objective et en termes précis la signification conceptuelle du patrimoine. Selon cette définition, le patrimoine est un des aspects de la création collective de la nation pendant sa longue histoire. Il est également ce qui exprime le mieux l'identité culturelle de la nation. Il est constitué de multiples formes culturelles, artistiques et intellectuelles héritées du passé récent et lointain de la nation. Il est le produit de l'homme et varie selon les lieux et les temps. En conception générale, il est constitué d'éléments matériels tels que les monuments, les vestiges découverts par les fouilles archéologiques ou exposés dans les musées, qui se réfèrent à différentes époques. Mais il compte également les apports intellectuels produits à différentes périodes historiques par les savants, les écrivains, les penseurs et les créateurs.

Il existe aussi un patrimoine de nature sociale constitué des us et coutumes prévalant dans la société et leurs effets de structuration des comportements et

(9) Ibid.

attitudes des individus. Et c'est bien à travers ces effets que ce type de patrimoine est étroitement lié aux pratiques culturelles, à leur façon d'appréhender l'avenir et de lier le présent au passé.

Dans ladite Stratégie, l'on peut également lire : «Si le patrimoine islamique, tel que nous en avons la profonde certitude est l'émanation du Saint Coran et de la Sunna authentique du Prophète, sources fécondes d'apports scientifiques, intellectuels et culturels, nous nous garderons forcément de réduire ce patrimoine aux simples travaux d'entretien, d'inventaire ou d'exposition des monuments, de l'assimiler à une banale perpétuation des fêtes rituelles ou d'entretenir de simples rapports affectifs avec les vestiges du passé (...) Le patrimoine est l'un des moyens efficaces pour l'affermissement de l'identité culturelle».

Dans la Stratégie culturelle du monde islamique qui constitue une feuille de route pour la nation arabo-musulmane, lui permettant de protéger son patrimoine et de préserver son identité, on peut lire aussi : «Nous nous défendons, aussi, de nimber le patrimoine dans une aura de sacralité, en arguant qu'il procède de la parole révélée. Il est clair que le patrimoine, loin d'être une forme de révélation franche, se définit comme une oeuvre humaine qui entretient des liens organiques avec la révélation. Sous cet angle nous estimons qu'en le soumettant à une analyse critique, le patrimoine n'en sera que plus préservé. De fait, la culture qui reconsidère ses origines et son patrimoine historiques avec une vision autocritique pour tirer des enseignements utiles, a plus de chance de construire son patrimoine futur avec le souci de créativité et d'authenticité. Cette démarche analytique est hautement profitable à ceux qui choisissent de questionner leur patrimoine, puisqu'elle leur permet d'être mieux disposés à prendre la relève à travers le changement (…) La langue arabe est un élément fondamental du patrimoine et une des bases solides de l'identité. Les créations musulmanes dans les divers domaines des sciences religieuses et terrestres (laïques) ont prouvé que l'arabe est une langue souple, apte à se développer et à s'adapter aux divers les concepts scientifiques et techniques. Elle possède une capacité d'adoption aux besoins scientifiques, intellectuels et psychologiques admirable. Le miracle rhétorique du Coran a su pénétrer les esprits de millions d'êtres humains. Les Musulmans ont fondé leur pensée et leur civilisation sur la base de ce miracle. Ainsi, la langue arabe est devenue l'outil référentiel permanent pour les musulmans désireux de comprendre le Coran et de connaître le riche patrimoine islamique.»[(10)]

(10) **La Stratégie culturelle pour le monde islamique**. Editions de l'Organisation islamique pour l'Education, les Sciences et la Culture, Rabat, 2001.

Etant donné qu'une grande partie de l'héritage intellectuel musulman a été produit en d'autres langues dans les sociétés musulmanes non arabes et qu'il a été, d'ailleurs, majoritairement écrit en alphabet arabe, il est alors nécessaire de prendre soin de ces langues et de faire la promotion de ce qui y a été écrit sur la culture musulmane. Pour sa part, l'ISESCO est bel et bien engagée dans une activité soutenue dans ce domaine.

Le patrimoine musulman qui consiste en ce qui a été produit par les arabo-musulmans dans les domaines des sciences et des arts, ce qu'ils ont laissé comme monuments historiques et architecturaux et ce qu'ils continuent de pratiquer en matière d'art et d'artisanat constitue aussi une source pour la culture musulmane et l'identité arabo-musulmane. Bien plus, la plus grande partie de ce patrimoine constitue une proportion importante du patrimoine humain que l'on ne peut ni ignorer ni nier. Nombreux sont les aspects vivants de ce patrimoine : outre les savoir-faire artistiques et les monuments historiques déjà évoqués, il existe un nombre d'institution sociales telles que les habous, institués pour couvrir les dépenses des mosquées, les bibliothèques, les maisons du savoir et les écoles coraniques, les différentes pratiques de bienfaisance, même à l'égard des animaux, et bien d'autres aspects religieux et traditions sociales.

La sauvegarde du patrimoine : quelles significations ?

La préservation de notre patrimoine est une responsabilité commune que l'ensemble des catégories de la nation doit assumer. Notre identité est ce qui nous distingue des autres nations et peuples et fait notre orgueil et notre fierté. Elle est **la source d'immunité qui nous protège des influences extérieures**.

Dans ce contexte international instable, s'aggrave le danger qui menace les sociétés humaines dans ses spécificités culturelles et civilisationnelles, dans sa sécurité intellectuelle et spirituelle, dans son identité nationale et sa culture nationale et dans son patrimoine civilisationnel. Ce danger est d'autant plus grave que diminuent les chances de parvenir à affirmer la volonté des peuples, à contenir les folies extrémistes et imposer un ordre unique à l'ensemble de l'humanité.

D'où la nécessité de préserver l'identité civilisationnelle arabo-musulmane, la culture arabo-musulmane et le patrimoine arabo-musulman. Il s'agit d'une nécessité vitale et d'un devoir islamique de premier ordre.

Si le fait de préserver est constitué d'une ensemble d'opérations, à savoir **la persévérance, l'entretien, la prévention, le contrôle et la surveillance**, et si ces opérations ne peuvent avoir d'effet réel qu'intégrées dans une action d'ensemble,

alors à défaut de ces opérations et de leur intégration, tout travail de préservation sera dépourvu d'effet. Autrement dit, le projet global et systématique de préservation tournera court si une de ces cinq opérations fait défaut(11).

En outre, la préservation d'une chose revêt plusieurs aspects. Elle s'effectue à deux niveaux : **interne et externe**. Elle porte souvent sur ce qui vaut la peine d'être préservé. D'ordinaire, les gens entourent de soins ce qu'ils possèdent de plus précieux et de plus cher. D'où l'effort qu'ils fournissent en permanence pour le conserver et le maintenir en leur possession, travaillant autant que possible à ne pas le perdre ou à éviter tout ce qui est de nature à en entraîner la dépréciation. En tant que fondement de notre existence, le patrimoine et l'identité sont ce que nous possédons de plus cher.

Ce sentiment trouve sa justification dans la valeur dont on accrédite l'objet qu'on tient à préserver, dans l'importance et l'utilité qu'on lui reconnaît. Il vient de la croyance en la sacralité de la chose quand celle-ci est une croyance ou un principe ou une valeur essentielle qui trouve son origine dans la religion. Il vient du caractère précieux d'une chose, quand celle-ci est un bien meuble ou une antiquité ayant un caractère matériel, mais authentique. C'est bien là que se situe le niveau interne de la préservation .

Au niveau externe, la préservation se fait par la volonté du sujet. Celle-ci s'exprime à travers un travail qui vise à réaliser l'objectif de préservation. Certaines conditions doivent être réunies, à savoir le sérieux, l'efficacité et la nécessité de produire des résultats. Il faut également prendre en compte le contexte général, et se donner les moyens nécessaires à la préservation et réunir les conditions objectives qui permettent d'aplanir les difficultés et de traiter les handicaps auxquels peut être confronté le projet de préservation.(12)

Ainsi, le travail à accomplir pour préserver une chose est une condition sine qua non. En fait, autant est grande la valeur matérielle et symbolique de cette chose autant l'est le besoin de déployer un travail mû par une forte volonté, orienté par un mode de gestion rationnel et par un objectif défini avec précision. A défaut de ces conditions, un tel travail sera sans effet, parce que mal conduit.

Autant le travail de préservation est sérieux, accompli dans les règles de l'art, efficace et efficient autant sont grandes les chances d'atteindre l'objectif escompté. Ainsi, le travail de préservation est accompli de façon qui réalise la fin souhaitée.

---

(11) Dr Abdulaziz Othman Altwaijri. **De l'édification civilisationnelle du Monde islamique**, vol. 7, p. 148, Editions de l'Organisation Islamique pour l'Education, les Sciences et la Culture, Rabat, 2004.

(12) Ibid., p. 147.

Le travail de préservation ainsi défini nécessite la connaissance du contexte, du climat ambiant et des facteurs qui pourraient avoir des impacts positifs ou des effets négatifs sur la réalisation de la fin escomptée. A défaut d'une connaissance complète des changements, des nouvelles données et de la nature du contexte, l'effort de préservation fourni risque de ne pas aboutir.

Par ailleurs, l'on ne peut préserver une chose d'une manière satisfaisante qu'en ayant une connaissance globale de son contenu, sa valeur, son utilité et son impact sur le cadre d'existence matériel et symbolique. Parce que, doublé d'une profonde connaissance, l'attachement à une chose, de quelque nature que ce soit, se rend plus fort et susceptible de donner lieu à une volonté de préservation plus déterminée. Il y a également nécessité sous cet aspect d'accomplir les obligations liées à la chose qu'on veut préserver et à laquelle l'on est attaché, que cet attachement procède d'une croyance et d'une foi ou d'un besoin et d'un intérêt ou réponde à une des nécessités de la vie.

Ces deux niveaux, interne ou subjectif et extérieur ou objectif, se complètent l'un l'autre et s'interpénètrent. Cette complémentarité et cette interpénétration sont d'autant plus fortes que la chose à préserver ou que l'on veut préserver est de l'ordre des principes, des choses sacrées, des valeurs et des fondements. En fait, il est question dans ces cas d'obligations légales qui se hissent au-dessus des autres sortes d'obligations(13).

Nous insistons sur ces aspects, parce que, nous semble-t-il, la nécessité d'en souligner l'importance est d'autant plus impérieuse que les risques qui guettent notre patrimoine et notre identité sont une réalité de notre quotidien.

L'identité : une protection contre l'effondrement et la dissolution

La communauté arabo-musulmane est confrontée aujourd'hui à des défis qui constituent des menaces réelles pour la raison et l'identité arabes. En fait ces défis sont porteurs de risques qui planent sur l'existence, l'identité, les fondements et les spécificités de cette communauté. Pis encore, ils constituent une menace pour la sécurité spirituelle et culturelle de cette communauté glorieuse, porteuse du message civilisationnel arabo-musulman pérenne.

En effet, nous sommes sans conteste confrontés à une guerre sans merci. Ce qui y est en en jeu est notre histoire, notre patrimoine et la langue de notre saint Coran. C'est la raison pour laquelle nous sommes appelés à faire face à toux ceux qui portent le projet de fausser la vérité de notre histoire, pour nous orienter vers

(13) Dr Abdulaziz Othman Altwaijri, **Le monde musulman à l'ère de la mondialisation**, op.cit p. 45.

l'avenir en toute sécurité et en toute confiance, armés d'un mode de raisonnement scientifique et d'une vision objective. Nous est-il alors possible de mettre le patrimoine culturel au service de la renaissance civilisationnelle et du progrès social, sans prendre véritablement conscience de ce patrimoine tel qu'il s'est constitué et développé dans l'histoire et tel qu'il se déploie et se manifeste actuellement…et sans correction de notre cadre de pensée, à réaliser à travers un mouvement rationnel critique savamment orienté, et des déviations qui se sont accumulées à travers des siècles et qui ont consacré des valeurs intellectuelles, culturelles et matérielles inauthentiques et négatives, s'imposant à nous actuellement, affectant notre conscience et les fondements de notre existence ?(14)

Le patrimoine est une composante principale de l'identité. Celle-ci l'exprime et le transmet. L'on connaît les nations à leurs identités incarnées par la **culture** et le **patrimoine**. La préservation du patrimoine sous toutes ses formes et multiples manifestations est un devoir, une responsabilité et une mission, le patrimoine étant à la fois un bien humain, une richesse inépuisable et la source d'existence de la nation. Le patrimoine constitue une source de savoir de référence et une base de construction. C'est pourquoi le manquement au devoir de soins à l'égard du patrimoine équivaut à renier son identité et ses origines et la communication entre les générations à travers toutes les formes du patrimoine constitue une exigence qui dépend de sa préservation et de la protection des spécificités culturelles et civilisationnelles. En fait, notre patrimoine est une richesse humaine civilisationnelle qui a été, à travers l'histoire, une des sources majeures de la connaissance humaine. L'histoire intellectuelle, culturelle, littéraire et scientifique d'une nation est sa source de fierté. Elle y puise ses traits distinctifs, sa singularité et le fondement de son identité. Le patrimoine arabo-musulman regorge de sciences, de connaissances, de littérature et d'arts. Il constitue l'un des aspects de la civilisation arabo-musulmane où sont entrés en osmose les apports des Arabes, des Persans, des Romains, des Indiens, des Turcs des Africains et de bien d'autres races et ethnies, adeptes d'autres religions et doctrines, formant ainsi un système cohérent de valeurs, d'idéaux, de principes et de modes de création humaine dans nombre de champs de la connaissance. Le patrimoine ne s'oppose pas à la modernisation, ni au développement, ni encore à l'invention dans les idées et les conceptions ainsi que dans les procédures et les règlements. En outre, il constitue dans son ensemble une base bien assise pour l'introduction de changements qui améliorent

(14) Chawki Jalal, **La mondialisation : Identité et processus, un regard arabe**. Ad-dar Al Misriya Al Loubnaniya, le Caire, 2007.

les conditions de vie. Corrélativement, **l'identité est l'immunité qui protège contre l'effondrement et la dissolution**.

Partant de ce qui précède, la préservation du patrimoine est le processus même qui préserve l'identité.

L'auteur arabe Chawki Jalal écrit dans son livre : **La mondialisation : Identité et processus, un regard arabe** : «La prochaine bataille, comme le dit Shimon Perez, le président de l'Etat sioniste, **n'aura pas pour enjeu les frontières ou la terre, mais elle sera une bataille de l'identité juive et de l'appartenance culturelle. Il s'agit là d'une position idéologique qui remonte à la Torah et qui s'oppose fondamentalement et complètement à la logique de l'histoire et du mode de traitement rationnel de ses évènements, ce qui exige d'être prudent, de définir de façon correcte le cadre cognitif, normatif et historique pour renforcer l'esprit d'appartenance et d'affrontement.**»(15)

C'est en ces termes que notre ennemi qui a spolié notre terre, profané nos lieux sacrés, commis des injustices à l'égard de nos frères de Palestine, conçoit la nature de la bataille civilisationnelle alors qu'il est présent sur une terre spoliée, en vertu de décisions illégales et par un soutien partial apporté par des puissances coloniales despotiques.

J'ai voulu conclure mon propos par ce point pour attirer l'attention sur la réalité des défis auxquels nous sommes confrontés, sur la gravité de l'étape par laquelle nous passons actuellement et sur ce qu'ils exigent en termes d'action commune forte, de solidarité et de résistance pour préserver notre patrimoine, notre identité et notre existence.

(15) Op. cit.